



وزارة الثقافة

اللجنة العامة لقصور الثقافة

قصر الثقافة

سلسلة الفنون

قضايا اليوم الإنسانية لشكلية المنهج

كتابات في المنهج



وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة
سلسلة
الفلسفة والعلم
(١)

قضايا العلوم الإنسانية

إشكالية التفسير

تألّم

د. أحمد أبو النور د. علي عبد المعطي
د. حسن حنفى د. محمد على الكردى
د. مصطفى عمر د. حسن وجيه
د. عبد الرحمن العيسوى د. ناجي بدر

إشراف وتقديم

دكتور / يوسف زيدان

تصميم الغلاف : أميرة فهمي

كتاب الفلسفة والعلم

رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير
حسين هشتنان

المشرف العام
د. يوسف زيدان

المراسلات باسم مدير التحرير
على العنوان التالي
١٦ شارع أمين سامي
القصر العيني - القاهرة
رقم بريدي ١١٥٦٦

المحتويات

- تقديم :

د. يوسف زيدان	٥
- البحث عن منهج للعلوم الإنسانية	
د. علي عبد المعطى محمد	١٥
- المنهج الفلسفى	
د. حسن حنفى	٤٢
- المنهج فى دراسة الحضارات	
د. محمد على الكردى	٦١
- المنهج الرياضى فى العلوم الاجتماعية	
د. ناجي بدر	٧٧
- اشكالية المنهج فى الانثربولوجيا	
د. مصطفى عمر	١٠٤
- مناهج البحث فى علم النفس الحديث (رؤى نقدية)	
د. عبد الرحمن العيسوى	١٣٣
- منهجية علم التفاؤض الاجتماعي والسياسي (رؤى أميريكية)	
د. حسن وجيه	١٥٤
- ضد المنهج : إطلالة على أزمة العقلانية الغربية المعاصرة	
د. أحمد أنور أبو النور	١٨٥

تقديم

المشكلة هي المنهج.. ذلك ما اعتقده وأقول به، ليس فقط فيما يتعلق بالعلوم (الإنسانية) وإنما في العلوم كلها؛ بل المنهج هو المشكلة المهمة في شتى ضروب واقعنا المعاصر: فكريًا واقتصاديًا وسياسيًا واجتماعيًا.. علميًّا أيضًا.

إن مشروع النهضة في بلادنا، ذلك المشروع الوعاد بالكثير منذ عصر الطهطاوى إلى اليوم؛ لم يثمر بقدر ما وعد، ولم يتحقق منه إلا القدر القليل. وما ذلك التأثر في الإثمار، والتعثر في السعى ؟ إلا لأسباب من أهمها: افتقاد المنهج شاملة خلال القرنين الماضيين تتحرك بقوه، بيد أنها حركة بلا منهج، فحتى الآن لم تجب على السؤال الأول في مشروع النهضة : هل نتهض ذاتياً ، أم نعتمد على الغرب؟ وإذا جمعنا بين الأصالة والمعاصرة، فعلى أي نحو يكون الجمع؟ وما الذي يؤخذ أو يترك من التراث ومن الغرب؟ تلك هي المطلقات الأساسية للنهضة، وذلك هو السؤال المحوري فيها.. ومع ذلك، فنحن حتى الآن في تشتت الرؤى والتخييط بين جملة إجابات.. وبالرغم من أن السؤال واحد، وأن السؤال نصف الإجابة؛ إلا أننا لم نتفق على النصف الآخر من إجابة هذا السؤال الواحد، المشروع، الموضوع بقوة أمام علينا المعاصر منذ قرابة القرنين؛ بل الأعجب أن البساطيات أشتملت على رؤية منهجية أو ضع من روى الأوسط

والنهايات.. ففي البدايات كانت خطوات الطهطاوى وخمير الدين التونسي تسير وفق رؤية منهجية واضحة. ملخصها : أن هذه الأمة ، كى تنهض ، عليها الحفاظ على جوهر حضارتها (اللغة - الدين - التنشئة الاجتماعية) وتدعيم هذا الجوهر ، وحفظه، والحفاظ عليه، بعنصر متقدمة من الغرب (العلم - النظم والإدارة - التصنيع) وبهذه الروح كتب التونسي «أقوم المسالك في معرفة المالك» وكتب الطهطاوى «تخيص الإبريز» و«المرشد الأمين» وغير ذلك من مؤلفاته وترجماته.

واستمرت هذه الرؤية المنهجية ، واضحة ، في الجيل التالي للطهطاوى والتونسى .. لكنه، ومع ابتداء القرن العشرين ، غامت الرؤية وعاد فريق هنا إلى الماضي بكل قوته، وطرح الحاضر، وعاده.. وفريق آخر ألقى بنظره إلى الغرب، وقاطع ما هيمنا، واعتبر الغرب غاية أملنا ومتناه.. وسرعان ما اشتباك الفريقان، خلال القرن الحالى المسمى زوراً «قرن التنوير» ليحتمد الاشتباك بين جماعات نتائج فجأة: السلفية والعلمانية، الرجعية والتقدمية، المتغربون والمتأسلمون ، القوميون والنقطيون، السياسيون والعلميون .. الخ، وكل فرق منهم شرعة ومنهاج؛ ومع اشتباك الفرق، بل مع احتدام الاشتباك، انشغل كل فريق بالآخر، وادعى أن عنده (الحل) وتعالت فيما بينهم المهاورة، فعلت بينهم درجة المقايرة..، وصار أهل كل فريق بما لديهم فرحون، بينما الواقع العام يزداد حزنا، والخطو العام متفرق بين الأقوال والأهوار..، وتلاشى المنبع .

والمنهج هو المشكلة.

والمنهج يعني : أسلوباً في التفكير، وخطوات علمية منظمة تهدف إلى حل مشكلة أو معالجة أمر من الأمور.. وهو برنامج عمل في البحث العلمي، وفي نقل النظرى إلى التطبيق، وفي التخطيط للمستقبل وفق نظرة بصيرة.. فلابد - إذن - من طرح إشكالية المنهج .

ولشكل المنهج، بعمومه، إشكال واسع الأبعاد، والطريق إلى تحديد (المنهج) في شتى أمورنا المعاصرة ، طريق طويل.. طريق طويل نقطعه، وقد يقطعنا الزمان إن لم نقطعه، لنصل في النهاية إلى منهج واضح يرشد خطواتنا وينظم فكرنا و يجعلنا - على نحو مشمر - نستبصر الواقع ونستشرف المستقبل. ومن هنا كان طرحنا لقضية (المنهج في العلوم الإنسانية) باعتبارها أحد أهم القضايا الإشكالية المتعلقة بهذه العلوم من جهة، وباعتبارها - من الجهة الأخرى - خطوة مهمة على طريق استكشاف منهج عام لهذه الأمة التي عانت طيلة العقود الماضية من تشتيت منهجي لا حد له.

وقد تفضل الدكتور / على عبد المعطي محمد بصياغة (ورقة العمل) في هذه الإشكالية المحورية، فعرض فيها لفهوم العلوم الإنسانية وما تعانيه من أزمة منهجية اتضحت معالمها شيئاً فشيئاً، حتى وصل الأمر إلى ما هو مدهش حقاً أن نجد من بين العلوم الإنسانية من يتخد لنفسه أكثر من منهج يتعارض الواحد منها مع

الآخر تعارضاً جذرياً، كاتخاذ منهج التحليل النفسي والمنهج التجريبى والقياسى فى علم النفس، وكاتخاذ المنهج التاريخي والمنهج التجريبى الإحصائى فى علم الاجتماع «وهنا ظهرت صيحة أخذت تتعالى بين علماء المناهج ، وتم مسياقتها على النحو التالى: ألا يمكن أن نجد منهجاً واحداً للعلوم الإنسانية؟»

وقد طرح الدكتور / على عبد المعطى رؤيته المستندة، فى الإجابة على هذا السؤال الأخير، على مقوله (الفهم) التى حددتها المدرسة الالمانية، وأورد عليها تعقيبات وملحوظات، ليظل ملف القضية مفتوحاً أمام أصحاب المشكلة، أعني المشتغلين بالعلوم الإنسانية على اختلاف تخصصاتهم .

وتواترت من بعد ذلك الرؤى، ليعرض الدكتور / حسن حنفى قضية (المنهج الفلسفى) فيشير إلى اختلاف المناهج باختلاف الشعب وطراائق تفكيرها، وكيف تطورت المركبة المنهجية من خلال سمات عامة للوعى الأوروبى عبر تاريخه الطويل، ليقف بعد ذلك عند تطور الرؤية المنهجية فى الحضارة العربية الإسلامية وتتنوعها من عقائدية عند الفلاسفة إلى «جدلية عند المتكلمين، نونية عند الصوفية، أصولية عند الفقهاء...» وهو يرى أن الخروج من الأزمة المنهجية المعاصرة - على صعيد الفكر الفلسفى - يمكن فى التقطير المباشر الواقع وفقاً لقواعد أمها: إعمال العقل وإزاحة اللامعقول وهو ينتهى إلى القول: «إن التحدى الآن ليس هو الأزمة، بل المدخل إليها. فالأزمة فى المنهج قبل أن تكون فى الموضوع» ولأن من طبيعة الفلسفة أن تصوغ

الأستاذة الكبرى - ربما بأكثر مما تقدم الإجابات - فقد أعاد الدكتور حسن حنفي طرح نفس السؤال / المشكلة الذي طرحته من قبل شكيب أرسلان: لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم؟ ليظل الملف مفتوحاً..

ويدخل الدكتور محمد على الكردي إلى القضية من باب تخصصه ، في sistem في هذا الملف ببحثه (المنهج في دراسة الحضارات) فيه شئنا تناوله للموضوع حين يكتب - وهو استاذ اللغة والحضارة الفرنسية - من الاستشهاد بأبيات الشعر العربي القديم، ليخلص إلى رأى مفاده أن : بالرغم من بروز مفهوم «الحضارات» خلال القرن التاسع عشر، فإننا لا نجد أى اتفاق بين المؤرخين على تحديد معنى مصطلح «الحضارة» وهو يؤكد ما يقرره بشواهد من تعريفات متضاربة لاعلام الدراسين للحضارات من أمثال: جيرزو شبنجر ، توينبي .. ويختتم باحثنا عرضه القضية بأن علينا: كشف وإنتاج المفاهيم الكامنة في تاريخ الحضارات عن طريق بناء المذاهب والمداخل وتحديد الرؤى الجديدة والمتغيرة وفقاً لاهتمامات العصر واستثماراً لكل ضروب المعرفة المتاحة من غير خوف أو حواجز يقمع مصطنعة ! هكذا تحدث الدكتور محمد الكردي، فهل تراه يريد تحريرنا من وهم «العلمية» ليدخلنا مدخلاً نوعياً، وجديرياً، ديناميكياً، في درس الحضارة؟ بل بالأحرى: في الاستفادة من درس الحضارة! ويختصر الدكتور / ناجي بدر للرياضيات، وأوصافاً إياها بأنها «لغة العلم» بل يؤكد أنها «اللغة الوحيدة التي لا تتاثر بأى تحيزات تتبع من المفهوم الذي تستخدم فيه» وهو يبدأ ورقته البحثية (المنهج

الرياضي في العلوم الاجتماعية ببيان الفرق بين الاتجاه الكيفي والاتجاه الكمي، فينتقد الأول ويربط بينه وبين الأيديولوجية - الرأسمالية والاشتراكية - وشرح الاتجاه الآخر، الكمي ، تفصيلاً موضحاً دعائمه ومقوماته وفوائده ونظرياته وحدود تطبيق المنهج الرياضي/ الكمي في العلوم الاجتماعية، خاصة في عصر الحاسوبات الآلية.. وهو يرى أن : استخدام الرياضيات في العلوم الاجتماعية يمكن أن يحقق مزيداً من الاتفاق بين العلماء الاجتماعيين، بشرط الاعتماد على الأسلوب الإحصائي المناسب لمواضيع البحث، وبشرط دراسة الباحثين وإجادتهم في استخدام الأساليب الإحصائية. وعن علم الإنسان (الأنثربولوجيا) يتحدث الدكتور / مصطفى عمر موضحاً إشكالية المنهج في هذا العلم الاجتماعي الشيق، من خلال عرضه التفصيلي لمنهج البحث الأنثربولوجي وهو العرض الذي طوف فيه باحثنا بارجاء المدارس والاتجاهات الأنثربولوجية، متمنياً إلى حصر موجز لما يجب - منهجاً - اتباعه في مجال الأنثربولوجيا، وما هو متبع - فعلاً - في هذا المجال .

ويتفق الدكتور / عبد الرحمن العيسوى مع الدكتور / على عبد المعنى في أهمية المنهج الكيفي و المناسبة لعلم النفس، ففي ورقته (عنوانها: مناهج البحث في علم النفس الحديث: رؤية نقدية) يعرض لتطور طرق البحث، وأهم المناهج المستخدمة، وأساليب اختيار عينات البحث، ثم ينقد أشهر هذه الطرق المنهجية (الاستطبابان - الاستقطابية - الموضوعية العلمية) أعني المنهج الرياضي - الذي أدى بعلم النفس

إلى «تحوله إلى عمل آلى ميكانيكى حرفى يتمثل فى استجابة كمية من المعلومات من العقول الالكترونية، بعد نس ما يحصل عليه الباحث فى فم الكمبيوتر، ليحصل على كميات هائلة من الأرقام.. بعيداً من الواقع الميدانى»..

ومن علم النفس إلى علم جديد يحدثنا عنه الدكتور/ حسن وجيه في بحثه (منهجية علم التفاوض الاجتماعى والسياسي، دراسة أميريكية) الذى يؤكد فيه مشروع التئام العلوم الاجتماعية من أجل تحليل ظاهرة التفاوض، وهو الالتفام الذى ينتج علماً تمازجياً حدثنا بسميه علم اللغويات السياسية، وهو ما اقترحه باحثنا من قبل في رسالته للدكتوراه التى قدمها قبل سنوات بالولايات المتحدة الأمريكية، كما يقترح - أيضاً - نموذجاً منهجه لتحليل مفهوم (القدرة) من منظور علم اللغويات وعلم العلاقات الدولية، وحدود استخدام هذا التموذج، والصعوبات التى تواجهه، والحلول المطروحة لتجاوز هذه الصعوبات .

وأخيراً ، تخرج بحوث الكتاب من دائرة ثقافتنا (نحن) لتطل على ثقافة (الآخر) الغربين، من خلال بحث الدكتور/ أحمد أنور (ضد المنهج : إطلالة على أزمة العقلانية الغربية المعاصرة) ذلك أن الأمر يقتضى، ما دمنا بقصد الكلام عن قضية كبرى كهذه، أن ننظر في واقع القضية هناك.. وقد استعار باحثنا عنوان كتاب شهير لبول فيرايند P. Feyerabend هو Against Method الذي يمثل موقفاً متطرفاً مضاداً للمنهج والعقلانية، ولكننا - من زاوية أخرى-

لا يمكن أن تتوحد مع الغرب في عمق شراسته التي يمارس بها تقد
الذات محاولاً تجاوز مشروع الحداثة الغربية، وهو المشروع الذي
يعتقد الكثيرون من مفكري الغرب أنه استند أغراضه».

.. وكان مقرراً أن أكتب بحثاً لهذا الكتاب، عنوانه (المنهج
والتصوف) ومنعني عن ذلك أمران، الأول أن قضية المنهج في
التصوف قضية إشكالية متعددة المجال، فهناك إشكال المنهج في
النسق الصوفي ذاته، أعني التصاعدية العروجية منع عالم الحس إلى
عالم الحضرة الإلهية عبر السلم الروحي المعرف باسم «الأحوال
والمقامات»، وتلك نقطة مشكلة لأن النسق هائل الاتساع، حتى أن
الصوفية تقول «الطرق إلى الله على عدد أنفاس البشر»، وهذا أمر
لا يمكن ضبطه منهجياً، بل إن «الجذب» يلعب فيه دوراً مهماً.. وهو
دور، ضد المنهج! وهناك إشكال المنهج في دراسة التصوف، وتلك
بنيوها نقطة مشكلة لأن هذه الدراسة تتعدد مناهجها - بحسب ما
ذكره الدكتور / علي سامي النشار في مقدمة الجزء الثالث من كتابه،
نشأة الفكر الفلسفى في الإسلام - ومع هذه المناهج المتعددة، يظل
«التذوق» أمراً لازماً لدراسة التصوف، وهو - أيضاً - أمر ضد
المنهج! أما المانع الآخر، فهو أنني سبق أن قدمت بحثاً في المؤتمر
الثالث للجمعية الفلسفية المصرية (القاهرة، جامعة الأزهر ١٩٩٢)
كان عنوانه: المنهج بين المتكلمين والصوفية. ولم أشر هنا أن أكرر ما
سبق، فالتركيز اجترار.. ونحن اليوم في أشد الاحتياج للجدة
والابتكار واستشراف الأفاق الجديدة في الفكر والسلوك .

ويعد.. فهذا عمل شرفت بالإشراف عليه؛ أورياً إلحرى؛ التنسيق والإعداد له ذلك أن المشاركين فيه، أغلبهم مني بمنزلة الاستاذ ، وهم صفوة مختارة من أعلام الثقافة في واقعنا المعاصر؛ ولقد ساهموا «متضامنين» في طرح قضية أراها من أهم القضايا المعروفة أمام وعيينا المعاصر .

ولسوف تناوش بحوث هذا الكتاب في الملتقى الأول للفلسفة والعلوم، الذي سينعقد بقصر ثقافة التنون بسيدي جابر/ بالإسكندرية (يناير ١٩٩٦) ولعل المناقشات تثير الاشتباك الفكري المثير بقصد هذه القضية التي يعالجها الكتاب.. وسوف تتواصل- بإذن الله - الجهود، فتستمر هذه السلسلة (الفلسفة والعلم) في المسير تباعاً، وتتوالى الملتقيات الفلسفية / العلمية حول موضوع كل كتاب جديد في السلسلة بالإسكندرية .. تلك المدينة الفارقة في بحار الثقافة منذ عهد البطالمية، حتى عصرنا الحالي ..

وتبقى كلمة شكر، للأستاذ/ حسين مهران رئيس الهيئة العامة لقصور الثقافة على تخصيصه هذه السلسلة من الكتب وتشريفه بالإشراف عليها .. والأستاذ / محمد السيد عبد مدير الثقافة العامة بالهيئة لدعمه المستمر لهذه الفكرة حتى ظهرت إلى النور. والأستاذة/ ليلى فهمي مدير قصر الثقافة بسيدي جابر لمجهودها العظيم في رعاية ملتقانا الفلسفى / العلمى، بروحها الإسكندرانية الأصيلة.
والله الموفق،

دكتور / يوسف زيدان

**ورقة العمل
البحث عن منهج للعلوم الإنسانية**

د. علي عبد المعطى محمد^(*)

(*) استاذ ورئيس قسم الفلسفة بآداب الإسكندرية

البحث عن منهج للعلوم الإنسانية

أولاً : أزمة المنهج في العلوم الإنسانية

يمكن تعريف العلوم الإنسانية بأنها « تلك التي تدرك العالم على أنه ينطوى على معانٍ، ويتكون معرفتها بتلك المعانٍ»، وهذا يعني أن علوم الإنسان تحاول النهاز إلى الأفكار والمشاعر والمعانٍ والمقاصد التي تقف وراء الواقع أو التعبيرات المختلفة وإدراكها إدراكاً كييفياً . فموضعها يختلف على هذا النحو عن موضوع العلوم الرياضية الذي يدور حول الكم المتصل والمنفصل، كما يختلف عن موضوع العلوم الطبيعية الذي ينصب على المادة، ويدعى أن يقى الاختلاف في الموضوع إلى اختلاف في المنهج .

كان علماء الرياضة قد اتخذوا منذ القدم المنهج الاستنباطي Deductive Method منهاجاً ملائماً للعلم الرياضي، وجدنا آثار ذلك عند أفلاطون الذي كان يعلم في أكاديميته الاستنباط المنطقى للقضايا الرياضية، ومند أرسطو في حديثه عن العلم البرهانى، ومند أقليدس وتشييده للهندسة على هيئته نسق استنباطي، ونفس الأمر ينطبق على المنهج الاستقرائي Inductive Method الخاص بالعلوم الطبيعية فلقد عرف أرسطو الاستقراء وحدد النوع العلمي في كتابة الطوبيقا بأنه الانتقال من المعلوم إلى المجهول أو «الانتقال من الجزئيات للكليات».

وإذا كانتخلفية التاريخية العربية قد ميزت المنهجين

الاستنباطي والاستقرائي وأدت إلى استقرارهما، فقد افتقد منهج العلوم الإنسانية تلك الميزة، ذلك أن الحاجة إلى قيام هذا المنهج لم يبدأ إلا حينما استقلت علوم الإنسان مع بدايات القرن ١٩ عن أنها الفلسفة وقتها فقط حاول باحثوها إيجاد منهج ملائم لها، لا هو بالمنهج الاستنباطي الخاص بالعلوم الرياضية، ولا هو بالمنهج الاستقرائي الخاص بالعلوم الطبيعية ذلك لأن الإنسان محور دراسة العلوم الإنسانية ليس عدداً أو شكلأً مما تدرسها علوم الرياضة، كما أنه ليس مادة من مواد علوم الطبيعة.. إنه روح بالأصل؛ روح لا تقبل الكم أو القياس ولا تخضع للملاحظة أو التجربة، ورغم بساطة تلك الصدقية إلا أنها قوبلت بالرفض من البعض، وأدى ذلك إلى قيام ما يسمى بأزمة المنهج في العلوم الإنسانية .

بدأت الأزمة حينما حاول روسيون رد الروح إلى المادة وبالتالي إخضاع علوم الإنسان إلى منهج علوم المادة، وانداد سعيروها لهيبا حينما حاول هؤلاء وغيرهم تحويل الإنسان إلى مجرد عدد أو شكل مما يمكن إخضاعه لمنهج الاستنباط، غير أن مجموعة ثلاثة من الباحثين رأت ضرورة أن يتخذ كل علم إنساني منهجاً يخصه وحده دون غيره على ألا يكون هذا المنهج استقرائياً أو استنباطياً ،

ورغم ما في هذا الرأي من وجاهة، ومن اعتراف باختلاف مناهج العلوم الرياضية والطبيعية والإنسانية إلا أنه أدى إلى اتساع نطاق الأزمة بدلاً من حلها، ففي حين كان هدفنا تشيد منهج واحد يلائم العلوم الإنسانية جميعاً، قادنا هذا الرأي إلى مناهج عديدة متضاربة

يقال إنها تخص العلوم الإنسانية كمنهج التحليل النفسي في علم النفس، والمنهج الاستردادي في التاريخ، ومنهج التأمل العقلي في الفلسفة.. الخ.

ومن المدهش حقاً أن نجد من بين العلوم الإنسانية من يتخذ لنفسه أكثر من منهج يتعارض الواحد مع الآخر تعارضاً جذرياً، كاتخاذ منهج التحليل النفسي والمنهج التجريبي والقياس في علم النفس، وكاتخاذ المنهج التاريخي والمنهج التجريبي الإحصائي في علم الاجتماع، وهنا ظهرت صيحة أخذت تتعالى بين علماء المناهج وتم مسياقتها على النحو التالي :

ألا يمكن أن نجد منها واحداً للعلوم الإنسانية كلها يختلف تماماً عن المنهج المتبوع في العلم الرياضية ومن المنهج المتبوع في العلوم الطبيعية، بحيث لا تترك العلوم الإنسانية فريسة للتشتت بين مناهج متنافرة وغير ملائمة؟.

كان هذا السؤال مهما، وظهرت عدة محاولات تستهدف تشيد ذلك المنهج تمثل أهمها في تلك المبادرة الدقيقة التي حددتها المدرسة الألمانية والتي اعتبرت الفهم Understanding محوراً أميلاً في منهج العلوم الإنسانية، في مقابل المعرفة التجريبية التي تميز العلوم الطبيعية فبينما تكون المعرفة الأخيرة خارجية وتجريبية وكمية يتوجه الفهم نحو أعماق الواقع لكي ينفذ إلى المعانى والأفكار فيدركها إدراكاً كييفياً خالصاً، ومن الحال اخضاع المعرفة الكيفية إلى المعرفة التجريبية الكمية .

وحيثما اتضحت ذلك ، قام هجوم كبير على الوضعيية ورجالها في محاولة واضحة لنافورة قضية الفهم كعملية محورية للمنهج الكيفي الخاص بالعلوم الإنسانية، وظهرت أثناء هذا الهجوم أسماء كثيرة منها: جورج زيميل والفرد ميركانت، وسوريين كيركجارد، وفلوريان زنانيكى، وروبرت ماكيفير، وبيتير سوروكين، ورأيت ميلان، وفيرنند ستارك ولاتاي، وريكت، وفيبر، وريكمان، سوف تعرض فيما يلى لذماثج من تلك الإسهامات والمحاولات :

لقد ميز بيكارت بين النفس والجسم تمييزاً حاسماً، وقرر أن ميدان الروح يختلف تماماً عن ميدان المادة إلا أنه لم يتحدث صراحة عن منهج خاص بعلوم الروح رغم أنه تحدث بوضوح عن منهج العلوم الطبيعية .

أما الفيلسوف الانجليزى جون استيوارت مل فقد قام بنعت مصطلح العلوم الأخلاقية Moral Sciences الذى يරادف مصطلح Giestwissenschaften فى اللغة الألمانية لكي يدل به على العلوم الإنسانية التى نمت نمواً كبيراً فى القرن التاسع عشر وتمايزت عن مجموعة العلوم الطبيعية.

ويعد الفيلسوف الدانماركى سورين كيركجارد الرائد الأول للمنهج الجديد فى العلوم الإنسانية فلقد طالب بضرورة دراسة الإنسان وفق مصطلحات علم الروح لا علوم الطبيعة، ورأى ضرورة وجوب منهج يفيد فى دراسة الروح والباطن دراسة كيفية خالصة .

ولقد ذهب المفكر المثالى الحديث دلتاي إلى أنه من الحال تطبيق

مناهج العلوم الطبيعية على علوم الإنسان، فالعلوم الطبيعية تهالع وقائمة Facts حسية بينما تهالع العلوم الإنسانية معانٍ Meanings باطنية وبينما تعتمد العلوم الطبيعية على التفسير Explanation تعتمد علوم الإنسان على الفهم Understanding ويختلف موقف ريكمان الكانطي المحدث عن موقف داتاي في تفرقته بين العلم والتاريخ، فالعلم يقوم بتحليل الطبيعة في ضوء القوانين السببية، وهو بذلك يعالج ظواهر خالية من المعنى، أما التاريخ (كعلم إنساني) فهو يقوم بتحليل الطبيعة كنمط للأحداث الفريدة التي تتبع بالمعنى والمفهوى والمشاعر والأهداف.

أما ماكس فيبر فقد ذهب إلى أن العلوم الإنسانية والتاريخية ذات خصائص فريدة، وهي جميعاً تنشد الفهم، إلا أن الفهم عنده ليس مرادفاً للحدس الوجданى القامض بل هو عنده فكري وتحليلي وتفسير تنبوي للسلوك .

وآخر محاولة في إرساء منهج العلوم الإنسانية هي تلك التي قام بها ريكمان استاذ الفلسفة وعلم النفس بجامعة لندن والذي وضع كتاباً مهماً في هذا الصدد عام ١٩٦٧ قام كاتب هذه السطور بالاشتراك مع المرحوم الدكتور / محمد علي محمد بترجمته والتعليق عليه تحت عنوان «منهج جديد للدراسات الإنسانية» عام ١٩٧٩ وقد قدم ريكمان في هذا الكتاب صورة نسبية متكاملة لمنهج العلوم الإنسانية معتمداً على مصطلحات المعنى والفهم والتعبير والسياق .

ثانياً : الفهم محوراً للعلوم الإنسانية

علينا الآن أن نعرض لعناصر وعمليات هذا المنهج المقترن للعلوم الإنسانية وذلك من خلال نقاط محددة تتناول فيها وقائع العلوم الإنسانية واختلافها عن وقائع العلوم الطبيعية، ومعنى الفهم والشروط الاستمialogية الثلاثة له، وطبيعة التعبيرات والسياقات .

تهتم العلوم الإنسانية بواقع Facts شأنها في ذلك شأن العلوم الطبيعية، لكن وقائع العلوم الإنسانية تختلف عن وقائع العلوم الطبيعية اختلافاً جذرياً، فالواقعة بالمعنى المستخدم في العلوم الإنسانية واقعة ينتجهها موجود إنساني يصدر عنه أحكام أخلاقية وله معايير وأهداف ومشاعر وقيم وليس للواقعة الطبيعية ذلك، ووقائع العلوم الطبيعية محسوسة وملموسة لها وجوده ماثل أمام حواسنا .

وقائع مباشرة تخضع للإدراك الحسي، أما وقائع العلوم الإنسانية فهي وقائع غير مباشرة تتمثل في المعانى والمشاعر والأفكار التي ينفرد إليها وراء ما هو حسي تماماً ككيفياً .. ووقائع العلوم الطبيعية تخضع للتفسير الذي يحاول بيان العلاقات الخارجية بين الواقع، أما وقائع العلوم الإنسانية فتخضع للفهم الذي ينفرد إلى المعانى الباطنة داخل الأشياء ، وأخيراً فإن وقائع العلوم الطبيعية يمكن التعبير عنها بلغة كمية بينما لا تخضع وقائع العلوم الإنسانية لكم إذ إنها ذات طبيعة كيفية خالصة.

والفهم Understanding ليس منهجاً وإنما هو لباب المنهج الكيفي، وهو عملية لا غنى عنها في العلوم الإنسانية ، بل هو يطبع

هذه العلوم بطابعه، ولقد عنت المدرسة الالمانية بالفهم كأداة معرفية متميزة تختلف عن العمليات المعرفية المستخدمة في العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية على حد سواء، ذلك أن الفهم يحاول معرفة المشاعر والروايات والمقاصد والرغبات والأفكار عن طريق النساذ إليها خلال الكلمات أو التعبيرات أو السياقات ومن ثم يمكن تعريف الفهم بأنه «العملية المعرفية المتميزة التي تستهدف استيعاب المحتويات العقلية الكامنة في كل تعبير» ولما كان الفهم عملية معرفية فهو يتصل من ثم بالمعرفة أو الاستمولوجيا، وهذا يجب أن تتوقف عند الشروط الاستمولوجية الثلاثة للفهم:

(١) الألفة بالطبيعة الإنسانية :

بما أننا جميعاً من طبيعة إنسانية واحدة فإنك تكون مألوفاً لدى، كما أنت مألوف لديك، ومن ثم فإنني استطيع أن أفهمك، كما أنك تستطيع أن تفهمني ، فالاتصال إلى نفس الطبيعة يجعل الفهم ممكناً ويسيراً بيننا.

ونحن لأنفسنا بعضنا البعض في الآن الحاضر وحسب، بل إن هذا الفهم قد يمتد إلى البدايات الأولى للتاريخ، فنحن نفهم خطيئة آدم عليه السلام، وغواية حواء له، ونفهم معنى الآية التي دفعت سيدنا نوح إلى تكرار دعوه لابنه، ونفهم سير الأبطال وأهدافهم ورواياتهم وطموحاتهم وأفكارهم كما نفهم معانى العرب التي كتبها شكسبير فى روايته «روميو وجولييت» ومعانى الخطيئة والذم كما جاءت فى «أوديب ملكاً» كما نفهم كل التراث الأدبى والثقافى للمفكرين والأدباء

وما ذلك إلا لأننا ننتمي وإياهم إلى طبيعة إنسانية واحدة .

ونحن لأنفسهم الآخرين الذين يجاوروننا مكانيًا وحسب، بل إننا نستطيع أن نفهم الإنسان في كل مكان فنحن نفهم أفكار وطموحات الإنسان في أمريكا، كما نفهم أيديولوجيات وأفكار الناس في روسيا، ونحن نفهم الطقوس التي يمارسها الرجل البدائي في أفريقيا، كما نفهم مكتشفات العلماء في أوروبا .

٢) معرفة الخلفية الثقافية :

ويقصد بها الألفة بالقواعد والإصطلاحات التي تحكم الأغلبية العظمى من التعبيرات، فنحن لأنفسهم الجملة بدون معرفة قواعدها وتركيباتها، بدون معرفة اللغة بوجه عام. غير أن الخلفية الثقافية قد تشير إلى أكثر من هذا، فهي تضم المعرفة بالاكتشافات العلمية، والإبداعات الفنية، والحركات الأدبية، والمؤتمرات والندوات والقضايا الاجتماعية، والشنون العسكرية، والأبعاد التاريخية والمواضف الأيديولوجية ، والظواهر الجغرافية والأمور السياسية، والتيارات الفلسفية وينبئ أن كلما كان إمام الإنسان بالخلفية الثقافية كبيرا كلما كان فهمه أعظم .

٣) الوعي بالسياقات المحددة التي تحدث فيها التعبيرات :

وهذا الشرط واضح وضوحا لا لبس فيه، فالكلمة تكون أكثر دقة إذا فهمناها من خلال عبارة والعبارة تكون أكثر دقة إذا فهمناها من خلال فقرة، وفهمنا الفقرة من خلال كتاب، وفهمنا الكتاب من خلال العرف الأدبي والثقافي .

تعبير التعبيرات الوسيلة الوحيدة التي يحدث الفهم من خلالها، كما تعدد من جهة أخرى الموقف الوحيد للعلوم الإنسانية ، والتعبيرات وظيفتان هما الكشف عن حالتنا العقلية والشعرية، وإحالتنا إلى شيء له معنى أو إلى حادثة يشير إليها ويمثلها ومن ثم فالظاهر الفيزيقي تعبيرا إذا كشف عن حالة عقلية أو شعرية أو إذا أحالنا إلى معنى .

ويمكن تصنيف التعبيرات إلى تعبيرات اصطلاحية مثل الرموز الرياضية والإشارات الموسيقية وإشارات المرور، وتعبيرات طبيعية مثل الصيحة المعبرة عن الألم، ورفع اليد المعبرة عن التحية والسلام، والضحك المعبرة عن السعادة وتعبيرات ثابتة مثل الحديقة المنسقة، والتمثال، وتعبيرات المتغيرة مثل التعبير عن الغضب، والتعبير عن الفرح، والتعبير عن الاستياء وتعبيرات بسيطة كالكلمة والإيماءة، وتعبيرات مركبة مثل قصيدة شعرية أو رواية أو مقالة .

والتعبيرات لا يمكن أن تفهم إلا من خلال سياقاتها ولهذا يقترح ريكمان أن يتم تحديد العلوم المختلفة في ضوء سياقات تعبيراتها، فكل علم يختص بسياقات تعبير تختلف عن سياقات علم آخر ومن الممكن أن تتميز السياقات موضوعيا إذا ربط السياق بين تعبيرات تتميز بأنها ذات محتوى عام مشترك، وتتميز تصنيفيا إذا ترابطت التعبيرات فيه على أساس التشابه مثل (كل التعبيرات الموسيقية) وتتميز وظيفيا إذا كانت التعبيرات فيه ذات علاقة تدخل في بناء يخدم أغراضها معينة، كما تتميز تاريخيا حينما تكون من سلسلة

زمنية من التعبيرات يؤثر فيها السابق على اللاحق تأثيراً كبيراً، وتاريخ الفلسفة خير مثال على ذلك وأخيراً تتميز وجودياً إذا تكونت من تعبيرات ذات موضوع واحد أو كيان يدوم في زمان مثال ذلك كل ما يقوله الإنسان أو يفعله ويكون جزءاً من حياته.

فالتعبير إذن دائماً ما يحدث في سياق أو يتعلق بسياق أو عدد من السياقات لأن من طبيعته أن يشير إلى ما ورائه، وهذه الإشارة نفسها عبارة عن علاقة.

ثالثاً: ملاحظات وتعقيبات نقدية

آثار المنهج الكيفي القائم كما أرساه ريكمان بمسوئته التهاوية مستفيضاً من الإسهامات السابقة عليه عدداً من أوجه النقاش منها ما هو إيجابي ومنها ما هو غير ذلك، فلقد أكد إمكانية وحدة المنهج في العلوم الإنسانية من حيث تطبيق المنهج الكيفي الذاتي عليها جميعاً بلا استثناء كما قدم لنا يد العون في تحديد خريطة علم المناهج بصورة واضحة جلية: المنهج الاستنباطي، العلوم الرياضية، والمنهج الاستقرائي للعلوم الطبيعية، والمنهج الكيفي القائم على الفهم للعلوم الإنسانية وقد أماننا ذلك على القuspas على مشكلة تخطيط العلوم الإنسانية في اختيار مناهج متعددة منها ما هو غير ملائم لها ومنها ما لا يتوافق مع طبيعتها ومنها ما يطمس غايتها .

ولذا كان الفهم يقتضى المعنى أو الفكرة أو العاطفة التي تتف وراء التعبيرات فإن ذلك يفترض صدق ما تحتويه التعبيرات من معان أو عواطف أو أفكار، لكن ذلك لا يحدث مادة أو قل أنه لا يحدث في

حالات عديدة٩

ففقد بينت دراسات كثيرة أنه لا تعاوٍ بين اللُّغَة وبين محتواه العقلي، كما بينت دراسات أخرى أن الفارق قد يكون كبيراً بين الاتجاه اللغطي والاتجاه الفعلي، فقد نفعل ما لا نقول، أو ن فعل عكس ما نقول، أضف إلى ذلك أن اللُّغَة ليست هي دائماً خيراً تعبير عن الفكر، وأنها ليست الشوب الخارجى المضبوط له في كل الأحيان، فهناك عبارات اجتماعية مبهمة، كما أن هناك عبارات قد تؤدى إلى إخفاء حقيقة الفكر أو إلى خداع الآخرين أو إلى التسويه على مشاعرنا الحقيقية وإخفاء عواطفنا الصادقة.

يبينو إذن أن مسألة «الفهم» ليست بهذه البساطة، إذ إنها تتطلب مهارات وقدرات خاصة تتمكن صاحبها من الفهم الحقيقي الصادق لآفاق الناس وعواطفهم ومشاعرهم، لأجل هذا يدعونا «ريكمان» إلى اتباع مدخل متعدد الأبعاد نتمكن بفضله من النظر إلى الموضوع الواحد من زوايا فهم متعددة ويتخطى حدود المدخل الواحدي البعد بالإضافة إلى معرفتنا بالخلفية الثقافية التي تمثل الشرط الثاني من الشرط الاستدلوجية للفهم، فبمثيل هذه الفلسفية وبالدخول المتعدد الأبعاد الذي يضم مداخل نفسية وفكرية واجتماعية وسياسية وتاريخية نتمكن من التمييز بين التعبيرات الصادقة والتعبيرات المزيفة.

والمنهج الكيفي القائم على الفهم الذي يغوص إلى الباطن لكنه يقتصر المعانى والأفكار يثير موضوعاً مهماً يتعلق بعلاقة هذا المنهج

الفيزيومينولوجى، والفيزيومينولوجيا فى صورتها الأخيرة عند هوسرل تحاول إقامة منهج وصفى تصنف فيه ياسهاب كل أنواع الموضوعات فى ماهياتها، البحتة لكنه لا يقتصر على الوصف الخارجى للظواهر وإنما يتعمق الظواهر لكي يصل إلى وصف أعمقها وماهيتها، بيد أنه يقف عند حدود هذا الوصف فلا يحكم على شيء بل يقوم بما أسماه هوسرل «تعليق الحكم» وإذا نظرنا الآن إلى المنهج الكيفي كما قدمه «ريكمان» لرأينا أنه يتفق مع المنهج الفيزيومينولوجى بأنه ذاتى وينفذ إلى الباطن لاقتتنام المعنى أو الماهية، غير أنه يختلف عنه فى أن المنهج الكيفي لا يطالب «بتتعليق الحكم» وإنما هو يقوم بعمليات الحكم فى نفس الوقت الذى يقوم بعملية الفهم، فنحن إذ نفهم نحكم فى نفس الحكم .

قد يقال إن المنهج الكيفي القائم على الفهم يلائم بعض العلوم الإنسانية لكنه لا يلائم البعض الآخر خصوصا تلك التي تعتمد على مقوله الكم، ومن ثم فهو منهج لا ينطبق على كافة العلوم الإنسانية، إن الرد على هذا القول يستلزم بيان كيف أن مثل تلك العلوم الأخيرة التي تعتمد على مقوله الكم هي علوم إنسانية، ومن ثم يجب أن تفهم وأن تخضع للمنهج الكيفي .

يرى «ريكمان» أن الاقتصاد دراسة إنسانية حيث إنه يعالج علاقات ذات معنى كما أن موضوعاته هى التعبيرات التي تشير إلى معان أو أغراض أو أهداف بالنسبة للأفراد والنقابات أو الأمم وينذهب إلى أن الأفعال والأهداف التي تقف وراء التعبيرات

الاقتصادية وتثيراتها على الناس يمكن أن تفهم ومن ثم تكون بمثابة موضوع للعلوم الإنسانية .

ويذهب «ريكمان» إلى أن اقتصار الاقتصاد على تناول الحياة الاقتصادية في ضوء آليات عملية وإحصاءات تؤدي إلى نتائج مضللة إذا لم تتحقق بدراسات أكثر شمولاً من الدائرة الاقتصادية تتعلق بالإنسان الذي ينتج ويشترى ويستهلك وله متطلبات وأماله، واتجاهاته ، وأهدافه .

والواقع أن الاعتماد على لغة الإحصاءات والأرقام دون فهم مدلولات هذه الإحصاءات وبذلك الأرقام هو أمر يقودنا إلى التمسك بقشور الأشياء دون النفاذ إلى لبابها، ويؤكد ريكمان أيضاً على أن الجانب الاحصائي كثيراً ما يقودنا إلى قنوات عميماء وهو جهد ضائع تماماً اللهم إلا إذا تمكنا من فهم مدلولاته ومعانيه، وينتهي من تحليله هذا إلى أن التعبيرات الاحصائية ليست هي نهاية المطاف في الدراسات الاجتماعية أو السكانية أو الديموغرافية أو الإدارية، بل علينا أن نعتبرها مجرد رموز يجب أن نتعقب معاناتها بالغوص في باطنها فندرك حينئذ الأهداف والروايات والآفكار التي تقف وراءها، فالاقتصر على الجانب الاحصائي وحده هو اقتصار على أشباح خاوية من المعنى .

قد يقال أخيراً بأن المنهج العلمي المعاصر أو ما يسمى بالمنهج الفرضي يمثل حجر عثرة أمام تكوين خريطة علم المذاهب بصورة محددة وواضحة على النحو الذي انتهى إليه رأينا هذا، وذلك من

حيث إن المنهج العلمي المعاصر يختلف اختلافات كثيرة عن المنهج الاستقرائي التقليدي كما عند بيكون قوله، وأدت هذه الاختلافات إلى إزالة الحدود بين الاستقراء والاستنباط وبالتالي إلى اهتزاز خريطة علم المناهج، والواقع أن هذا القول ينم عن تناول سطحي للأمور ونحن لانتبه لما يلى :

أ) إن المنهج العلمي المعاصر لم يرفض «العلمية» تماما وإنما رفض أن يكون انعالم كله خاضعا للعلمية، هناك الآن علاقات علية وأخرى غير علية، ومن ثم فلقد وسع المنهج الفرضي دائرة العلاقات القائمة بين الظواهر، وستبقى العلية التي كان يعتمد عليها الاستقراء التقليدي لكنه لم يعتبرها العلاقة الوحيدة .

ب) كذلك لم يرفض المنهج العلمي المعاصر عنصر الملاحظة والتجربة وإنما وضعه في ترتيب غير الترتيب الذي كان له في المنهج الاستقرائي التقليدي، ففي حين أننا نبدأ بالمشاهدة والتجربة ونعتبرها خطوة أولى في المنهج الآخرين، فهما يأتيان كخطوة ثالثة في المنهج الفرضي أي يأتيان بعد تسجيل الفرض المصور واستنباط نتائج منه .

ج) والمنهج العلمي المعاصر يستخدم الفروض العلمية شأنه في ذلك شأن المنهج الاستقرائي التقليدي، بيد أن الرفض الذي كان يمثل الخطوة الثانية التي تلي خطوة الملاحظة والتجربة والذي كان يشير إلى مدركات حسية أصبح في المنهج العلمي المعاصر فرضا صوريا لا يشير إلى مدركات حسية ويأتي سابقا على الملاحظة

والتجربة.

د) إن المنهج العلمي المعاصر يستهدف الوصول إلى قضايا كثيرة
وهو نفس هدف الاستقراء التقليدي .

هـ) إذا كان المنهج العلمي المعاصر يستخدم الاستنباط الرياضي جنبا إلى جنب مع الخبرة الحسية بخلاف المنهج الاستقرائي التقليدي، فهذا لا يبعد فاصلـا حاسما كما توجه البعض فالاستقراء Induction والاستنباط Deduction جزمان لعملية واحدة هي الاستدلال Inference أو مما كما يقال وجهان لعملية واحدة : وجـه يـمـثلـ الاستـقـراءـ وـآخـرـ يـمـثلـ الاستـنبـاطـ، يـتـجـهـ الاستـقـراءـ منـ أـسـفـلـ إـلـىـ أـعـلـىـ مـنـ الجـزـئـيـ إـلـىـ الـكـلـيـ، بـيـنـمـاـ يـتـجـهـ الاستـنبـاطـ منـ أـعـلـىـ إـلـىـ أـسـفـلـ.. مـنـ الـكـلـيـ إـلـىـ الجـزـئـيـ، وـرـغـمـ وـجـودـ هـذـهـ عـلـاقـةـ بـيـنـهـمـ إـلـاـ أـنـ ذـلـكـ لـمـ يـمـنـعـ تـماـيزـهـمـ :

المنهج الاستقرائي للعلوم الطبيعية والمنهج الاستنباطي للعلوم
الرياضية .

و) وبالإضافة إلى ذلك فنحن نستطيع أن نقدر بكل ثقة أن المنهج
العلمـيـ المـعاـصـرـ لاـيمـكـنـ أـنـ يـقـومـ أـوـ يـسـتـمـرـ بـدـونـ المـنهـجـ الاستـقـرـائـيـ
التـقـلـيدـيـ ، فـالـمـنهـجـ الـأـولـ يـعـتـمـدـ عـلـىـ تـفـسـيرـ الـقـوـانـينـ الـتـيـ مـاـ زـالـتـ
مـحـتـاجـةـ إـلـىـ تـفـسـيرـ أـكـبـرـ لـكـنـ مـنـ أـينـ أـنـتـ هـذـهـ الـقـوـانـينـ؟ أـنـهـ لـاتـكـنـىـ
إـلـاـ عـنـ طـرـيقـ الـمـنهـجـ الاستـقـرـائـيـ التـقـلـيدـيـ .

ومن ثم فنحن نقول بأن المنهج الاستقرائي سيظل قائما كمنهج
العلوم الطبيعية حتى وإن استعان بالاستنباط، كما سيظل المنهج

الرياضي قائماً كمنهج ملائم للعلوم الرياضية حتى وإن احتاج إلى الاستقرار، وهم معاً لا يصلحان التطبيق على العلوم الإنسانية التي لا يلائمها إلا المنهج الكيفي القائم على الفهم كمنهج وحيد لها وهذا هو الموقف النهائي لهذه الدراسة.

(ابعاً: منهج واحد للعلوم الإنسانية وطرائق بحث متعددة الواقع أن القول بتشتت مناهج العلوم الإنسانية يمثل خطوة تراجعية تعود بنا إلى ما قبل ظهور ما يسمى بازمة المنهج في العلوم الإنسانية، تلك الأزمة التي تمثلت في قبول بعض هذه العلوم للمنهج الاستنباطي أو للمنهج الاستقرائي ومن ثم ردت الإنسان إلى مجرد عدد أو مادة من مواد الطبيعة، كما تمثلت في قبول بعضها الآخر لأكثر من منهج يتعارض الواحد مع الآخر تعارضاً جذرياً، بحيث انتهى الأمر بالعلوم الإنسانية إلى وقوعها فريسة للتشتت بين مناهج عديدة متناقضة وغير ملائمة.

كان من المستحيل لفكري وعلماء مناهج البحث أن يديروا ظهورهم لتلك الإشكالية أو تلك الأزمة الناجمة عن تعديدية المناهج في العلوم الإنسانية فرافقوا بيهشون عن منهج واحد لها جميعاً يلائم تلك العلوم من جهة ويختلف عن المنهجين الاستنباطي والاستقرائي من جهة أخرى، ووجدوا خالاتهم المنشودة في منهج الفهم الكيفي.

والمنهج يوجه عام، ومنهج الفهم الكيفي على وجه الخصوص رؤية شاملة ذات خطوط كلية تميّز اللثام عن فلسفة معينة، وظایات محددة، وهو ينفذ في كافة العلوم الإنسانية، ويطبعها بطباعته وروحه،

وفي هذا لا يختلف علم إنساني عن آخر .

وإلى جوار المنهج تستخدم العلوم الإنسانية طرائق أو أساليب بحث تستهدف إنجاز المنهج وتحقيق غاياته، من هذه الأساليب الأسلوب التاريخي، وأسلوب المسح الاجتماعي، وأسلوب الإحصائي ، وأسلوب العقلنة الخيالية، وأسلوب التحليل النفسي، وأسلوب التأملي، وأسلوب تحليل المضمون .. وأسلوب دراسة الحالة .. الخ، وتتفاوت العلوم الإنسانية من حيث استخدامها لأسلوب أو أكثر حسب اختلاف تعبيرات وسياسات هذا العلم أو ذاك، فـأسلوب الإحصائي يقييد في علم الاقتصاد لكنه لا يلائم الفلسفة، وأسلوب التحليل النفسي يقييد في علم النفس لكنه لا يكون كذلك في علم الجغرافيا، وأسلوب المسح الاجتماعي يقييد في علم الاجتماع لكنه لا يلائم علم التاريخ. لكن ذلك لا يمنع عدداً من العلوم الإنسانية من استخدام نفس الطرائق أو الأساليب ، فـأسلوب دراسة الحالة مثلاً يمكن استخدامه في علم الاجتماع، وعلم النفس والطب النفسي والخدمة الاجتماعية، وأسلوب تحليل المضمون يمكن استخدامه في مجالات الصحافة والإعلام والأدب وعلم الاجتماع والفلسفة والتاريخ وعلم النفس، وأسلوب الإحصائي يمكن استخدامه في علوم الاقتصاد والنفس والاجتماع، وأسلوب التاريخي يمكن استخدامه في علم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة والجغرافيا فضلاً عن علم التاريخ .

غير أن ما نريد أن نؤكد عليه هو أن أساليب البحث وطرائقه

المستخدمة في العلوم الإنسانية يجب أن تكون معبرة عن منهج الفهم الكيفي ومحقة لغاياته وأهدافه فالعلوم الإنسانية تستخدم الأسلوب الإحصائي، شريطة أن «نفهم» المدلولات والمعانى التي تقف وراء الأرقام فيما كييفياً؛ ذلك أن الاقتصر على الجانب الإحصائي هو اقتصر على أشباع خاوية من المعنى، إن طريقة تحليل المضمون Content Analysis يجب أن تعبّر عن منهج الفهم الكيفي، وتتوافق مع عملياته وأهدافه، لا أن تتوقف عند تصنیف المضمون إلى: ماذا قيل؟ وكيف قيل؟ أو تسجيل الكلمات وعددها في قوائم معينة، أو إحصاء العبارات التي تشير إلى أفكار معينة في مجال تحليل معين، أو تعداد الشخصيات والمقالات أو الكتب والروايات أو البرامج الإذاعية والتليفزيونية، أو قياس المساحة والزمن كذكر عدد الصفحات والأعمدة والسطور في المادة المكتوبة، والدقائق بالنسبة للبرامج الإذاعية والتليفزيونية. إن طريقة تحليل المضمون لو توقفت عند ما سبق ذكره فإنها تكون قد توقفت في نفس الوقت عند القشور الظاهرة للأشياء بدلاً من الغوص في لبها، إن عمليات الترميز والتصنیف والإحصاء والتعداد وتحديد وحدات المكان وآلات الزمان لا يجب أن تكون هي نهاية المطاف، إنها البداية التي يجب أن نسبّر أغوارها الدفينة وياطنها الكيفي بكل ما يحمله من دلالات ومعانٍ ومشاعر وقيم وأهداف .

ويجب ألا تننسق في هذا المضمار وراء زمرة الباحثين السطحيين الذين حاولوا توجيه نظرنا نحو شكل التحليل أكثر من مضمونه،

ونحو ظاهرة الكمي أكثر من باطنها الكيفي.

كما لا يجُب إلا قبل ذلك التعريف الذي جاء به بيرلسون ونصه أن «تحليل المضمون أسلوب في البحث يهدف إلى الوصف الكمي الموضوعي المنظم للمضمون الظاهر».

تبقى أساليب العقلنة الخيالية، ودراسة الحالة والتحليل النفسي، والأسلوب التأمل ، والأسلوب التاريخي، وواضح أنها جميعا ذات طابع كييفي خالص، وبالطبع يمكن أن يضاف إلى هذه الأساليب أو المترافق أساليب أخرى شريطة أن تتفق مع جوهر منهج الفهم الكيفي وتحقق أهدافه وغاياته .

ليس ثمة مناهج عديدة إذن في حقل العلوم الإنسانية بل هناك منهج الفهم الكيفي، وأن هذا لا يعني وجود طرائق بحث متعددة تدور في تلك هذا المنهج وتعبر عن روحه العامة .

خامساً: الأيديولوجيا وقضية الموضوعية في العلوم الإنسانية
والواقع أن النور الأيديولوجي بما يشتمل عليه من قيم وأفكار ودفء، وبما يتضمنه من انحيازات ومشاعر ورغبات، وبما يرفعه من شعارات تخاطب العواطف والوجدان، يؤدي إلى عدم استقلالية الباحث عما يدرس من قضايا وظواهر ومشكلات فتتدخل ذاته في الموضوع ويصدر أحكاماً قيمية وأخلاقية على ما يعيه أو يفهمه، وتتشاشى المسافة التي ينبغي أن تكون بينه وبين وقائع بحثه وفي هذا هدم للموضوعية ، وتنطيل من مرتبتها .

هكذا تعصف رياح «الأيديولوجيا» جنبا إلى جنب مع «الذاتية»

وأحكام القيمة بأطروحة الم موضوعية، أو تقلل منها في أحسن الأحوال: الذاتية تقضي باتباع ميلانا وأهواننا، مواقفنا الشخصية، ورغباتنا الفردية، وأحكام القيمة تسليينا حيادنا الأخلاقي والقيمي، والأيديولوجيا تدفعنا إلى الانحياز لعقيدة فكرية، والتعمّب لها، وصيغ الواقع بصيغة معينة .

أما كلمة «الموضوعية» فهي تشير إلى الالتزام بالموضوع مثار النظر، وتناوله بالبحث والدراسة بعيداً عن تطلعاتنا وتحيزاتنا وأرائنا السابقة ورغباتنا، ومن ثم فهي ترافق «الحياد» وتقابل «الذاتية» وتعبر عن القدرة على استبعاد المشاعر والعواطف عند تناول الواقع وتفسيرها وعدم إصدار أحكام أخلاقية أو قيمة بشأنها .

لكن هل تحمل «الموضوعية» عند أنصار النزعة الطبيعية نفس المعنى الذي تحمله عند أنصار النزعة الذاتية؟

لقد حاول أنصار النزعة الطبيعية تحويل الكيف إلى الكم، والروح إلى المادة، محاولين بذلك العمل على احتذاء العلوم الإنسانية للعلوم الطبيعية، ومن ثم لا يصبح هناك تفاوتاً بين مفهوم «الموضوعية» في كل من العلوم الإنسانية والطبيعية، ولقد مثل تلك النزعة خير تعثيل الوضعيون والوضعيون المنطقيون، والسلوكيون، والنقديون التجربيون، وكل من سار على منوالهم .

ويمكن اعتبار محاولة إميل دور كايم Durkheim في علم الاجتماع داخلة تحت هذا الإطار، فلقد نادى بضرورة تناول الواقع أو الظاهر الاجتماعية على أنها أشياء ، ومعالجتها من هذا المنظور

أي باعتبارها وقائع طبيعية، ولقد استعان في هذا الصدد بالاحصاء الذي أشاد بأهميته واستخدامه في دراسته عن الانتحار. أما أرنست ماخ Mach صاحب مذهب النقد التجاريبي فقد اجتهد في إيجاد بناء منهجي واحد، يعتمد على الإحساسات وحدها، ويكون صالحًا لأن يشتق منه كل بحث علمي سواء أكان هذا البحث في ميدان الفيزياء أو الأنثروبولوجيا أو علم النفس الخ.. في حين حاول كارناب Carnap إيجاد أسلوب اخترالي ترد العلوم الإنسانية وفقه إلى أصولها الفيزيائية وعلى الأساس ذهب فيجل Feigl إلى أن علم النفس يمكن رده إلى الفيزياء كما يمكن رد علم الاجتماع إلى علم النفس وهكذا قل في بقية العلوم. أما لنديبرج Lundberg فقد زعم أن ما نسميه بالإرادة والعاطف والرغبات والمشاعر وكل ما هو حسي ليست أكثر من «زوابع» لا معنى لها. وفي عام ١٩١٢ كتب واطسون Watson مقالاً بعنوان «علم النفس من المنظور السلوكى»، تبذر فيه الاستبطان كأسلوب للدراسة في علم النفس، وذهب إلى أن السلوك الإنساني يجب بحثه بنفس الأساليب المستخدمة في الكيمياء والفيزياء وعلم الحيوان، أي بطرائق تجريبية حسية تتعامل مع السلوك الظاهر وحسب .

ولقد رأى هؤلاء جميفاً وغيرهم ممن سار على دربهم أن الموضوعية في العلوم الإنسانية يمكن أن تتحقق تلقائياً متى اتخذت هذه العلوم أساليب ومنهج العلوم الطبيعية بكل دقة واتقان. وهذا يعني أن احتذاء علوم الإنسان لعلوم الطبيعة سوف يؤدي في نظرهم

إلى تحقيق الموضوعية المنشودة في العلوم الإنسانية، غير أن هذا الرأي قد قوبل بهجوم عنيف للأسباب التالية:

١) إن العلوم الإنسانية تختلف اختلافاً بيناً عن العلوم الطبيعية في الموضع والمنهج وأساليب البحث، فموضع العلوم الإنسانية هي الواقع التي ينبعها موجود إنساني مزود بهيكل من القيم والمشاعر وليس الواقع العلوم الطبيعية ذلك، وواقع العلوم الطبيعية حسي مباشرة بينما وواقع العلوم الإنسانية غير مباشرة وتتمثل في المعانى والأفكار التي تقف وراء ما هو حسي مباشر، الواقع الأولى تخضع للتفسير، والثانية تخضع للفهم، وتحتاج العلوم الإنسانية أيضاً عن العلوم الطبيعية من حيث المنهج ، فمنهج الطائفة الأولى من العلوم منهج الفهم الكيفي ، بينما منهج الطائفة الثانية هو المنهج الاستقرائي، وبالتالي تختلف أساليب البحث في كل منها تبعاً لاختلاف المنهج والموضع .

فكيف يمكن إذن رد العلوم الإنسانية إلى العلوم الطبيعية ؟

٢) تختلف العلاقة بين الباحث وموضوع بحثه في العلوم الإنسانية عن مثيلتها في العلوم الطبيعية فهي علاقة داخلية في الأولى خارجية في الثانية .

٣) إن الإسراف والتهثث وراء محاكاة العلم الطبيعي واحتذائه أدى إلى اختزال وتشويه ظواهر العلوم الإنسانية وتغريغها من خصوصيتها وعزلها عن سياقاتها التاريخية، كما أدى إلى التوجّه نحو ما هو سطحي ويسقط مما يمكن إخضاعه للقياس والإحصاء

وإعمال ما هو كييفي وروحى وخلق.

غير أن الذاتيين وقد اهتموا بالمعانى والأفكار والرغبات التى تقف وراء الظواهر والتى تنفذ إليها نفاذًا كييفيا ذهابا إلى أن المنهج الفينومينولوجى كما جاء عند «هوسرب» هو الأقرب إلى اتجاهاتهم ، والعبير عن موقفهم، والفينومينولوجيا فى صورتها الأخيرة تحاول إقامة منهج وصفى تصنف فيه بإسهاب كل أنواع الموضوعات فى ماهياتها البحثية. بحيث لا يكون هذا الوصف ظاهريا أو خاريجا أو حسيا، وإنما يكون وصفا متعينا لباطن الظواهر، ومدركا لأعماقها الدفينة. بيد أن الذاتيين لا يوافقون هوسرب في فكرته عن «تعليق الحكم» ذلك لأن الإنسان حين «يفهم» فإنه «يحكم» في نفس الوقت. ومن هنا جاءت إقامتهم لنهج خاص بالعلوم الإنسانية وهو منهج الفهم الكييفي.

لا يوافق أنصار هذا المنهج وعلى رأسهم «ريكمان» على ما انتهت إليه الموضوعية بكلة صورها. ورأوا في نقطتنا قيد البحث أن الموضوعية في العلوم الإنسانية لا بد وأن تختلف عن مثيلاتها في العلوم الطبيعية ، وأن عدم قدرة هذه العلوم على التخلص عن الذاتية بمعانيها المختلفة تمثل ميزة تميز بها تلك العلوم عن غيرها من العلوم الطبيعية. ومع هذا فنحن نستطيع أن نتحدث عن الموضوعية في مجال العلوم الإنسانية ولكن بمعنى يختلف عن مثيله في العلوم الطبيعية، إذ إن الموضوعية تشير في مجال العلوم الإنسانية إلى قدرتنا على إيجاد علاقة تربط كل حالة فردية بهيكل كل من الأدلة

بحيث نصوغ في نهاية الأمر أنساقاً ذاتية تمكنا من استبعاد الذات الفردية التي قد تقصد جزءاً من البحث العلمي.

إن الموسوعية في العلوم الإنسانية تجعلنا نتحدث عن نتائج أبحاثنا وفق ما انتهت إليه تلك الأبحاث لا وفق ميلنا ورغباتنا، ويقدم لنا ريكمان المثالين التاليين للتدليل على صحة رأيه هذا، يقول في المثال الأول : «لو أن عالماً اجتماعياً طبق استبياناً دقيقاً على مائة فرد يهدف معرفة أهمية «شرب البيرة» في حياتهم أو عدم أهميتها وانتهى الاستبيان إلى نتيجة مفادها «أن شرب البيرة يمثل أهمية لهم جميعاً» فلا شك أن هذه النتيجة تتسم بالموسوعية، لكن افرض أن الباحث نفسه يكره شرب البيرة ويعتبر شريبتها بغير ذى أهمية للحياة الإنسانية ومع ذلك احتفظ بالنتيجة التي توصل إليها الاستبيان، ولم يصيغها برأيه الشخصي، فلا شك أن يكون ملتزماً بالمعنى درجات الموسوعية، والمثال الثاني يذكر فيه ريكمان أن المؤرخ الملحد الذي يدرس كتابات عصر ماضٍ، يكون متسعًا بالمعنى درجات الموسوعية لو أنه وصل إلى النتيجة القائلة بأن الدين كان هو المحرك الأصلي لفهم ذلك العصر، لأنه كان كذلك فعلًا.

على الباحث في العلوم الإنسانية أن يجعل ذاته مستقلة عن دائرة البحث، وأن يجعل نفسه أورifice غير محتاج لما يجعله منتبراً للانضباط والدقة، وأن يجرد ذاته من الأحكام الأخلاقية والقيمية ، ويضرب لنا ريكمان مثالاً يبين لنا فيه الفارق بين موقفين: موقفاً يكون فيه الباحث داخل دائرة البحث ويصيغه بصيغة أخلاقية، وأخر

يكون فيه الباحث خارج تلك الدائرة. فلو أننا كنا نتداول «ملتر» بالدراسة فإن صاحب الموقف الأول سوف يدينه أو يهاجم أفعاله وتصرفاً، ويصدر في النهاية حكماً أخلاقياً عليه باتهامه وإدانته، أما صاحب الموقف الثاني فسوف يكتفى بوصف أفعاله دون أن يصدر عليه حكماً أخلاقياً لكن باحث العلوم الإنسانية هو إنسان قبل أي شيء، وهو باعتباره كذلك لا يمكنه تحاشي رغبته في استخدام أبحاثه للتحذير من الشر والدعوة إلى تبني ما يكون قريباً إلى قلبه أو أبيضوجيته.

فنحن كديمقратيين نكون شفوفين ببيان أن التاريخ يكشف عن شرور الطغيان، ونحن كمحافظين نكون بحاجة إلى بيان النتائج الأخلاقية الناجمة عن المطفرات الراديكالية المفاجئة.

ويرى ريكمان أنه على الرغم من أننا نرغب في التعبير عن اعتقاداتنا الأخلاقية إلا أن ذلك لا يعني صبغ أبحاثنا بتلك الاعتقادات، فحين يعبر المؤرخ مثلاً عن اعتقاداته الأخلاقية فإنه يكون ذلك من أجل استبعاد تأثيرها عن بحثه، أو لكي يسمع لقارئيه أن يستطعنها من حسبائهم عند قراءته، إن على المؤرخ كباحث أن يميز بين واجب الوصف المفروض عليه من الواقع ذاتها وبين مسؤولية الحكم الذي يصدر منه باعتباره إنساناً.

وهكذا تؤدي الممارسة في إطار العلوم الإنسانية إلى تدعيم الفعل بين ما هو ذاتي وبين ما هو موضوعي، وبالتالي تدعيم الاتجاه الموضوعي.

أهم مراجع ورقة العمل

مراجع عربية:

- ١) د. عبد الباسط عبد المعطي - البحث الاجتماعي محاولة نحو رؤية نقدية لمنهج وأبعاده- دار المعرفة الجامعية - ١٩٨٧.
- ٢) د. علي عبد المعطي محمد - رؤية معاصرة في علم المذاقج - دار المعرفة الجامعية ١٩٨٧.
- ٣) د. صلاح قنصلو - الموضوعية في العلوم الإنسانية - دار التدوير والنشر بيروت - ١٩٨٤.

مراجع أجنبية:

- 1) Buchahl : Induction and the Scientific Method,
Mind 60, 1951
- 2) Navilles E : The Structure of Science , London,
1961.
- 3) Rickman ' H: Understanding and the Human
Studies, London 1967.

المنهج الفلسفى

د. حسن حنفى^(*)

(١) فيلسوف مصرى معروف، أستاذ الفلسفة بآداب القاهرة .

١- مقدمة : المنهج عند كل الشعوب

ليس المنهج حكرا على شعب بعينه أو وقفا على ثقافة بعينها أو قسرا على حضارة خاصة بل هو عام عند كل الشعب، ومعرف في كل الثقافات، موجود في كل الحضارات. ونظرا لسيطرة الثقافة الغربية في العصور الأوروبية الحديثة وتصدرها ثقافات العالم حتى أصبحت مركزا، وثقافات العالم محاطتها، ارتبط المنهج بالفلسفة الغربية، وتواترت المناهج في الفلسفات الأخرى شرقية أو إسلامية وزاعت النماجم القرورية خارج حدود الغرب في الثقافات الشرقية والإسلامية. فازووجت الثقافات اللاغربية بين مناهج غربية ومناهج وطنية، مناهج تجزيئية ومناهج كلية، مناهج تميز بين المنهج والموضوع ومناهج توحد بين المنهج والموضوع، مناهج صورية عقلية أو تجريبية من أجل المعرفة ومناهج تجمع بين المعرفة والسلوك، بين النظر والعمل، بين الحق والخير والجمال، بين المعرفة والأخلاق والفن، بين الفكر والحياة .

ينشأ المنهج في كل حضارة بناء على ظروفها وتاريخها، ومن خلال نشأتها وتطورها، وطبقا لتكوينها وبنيتها. فالحضارة الغربية عرفت بأنها حضارة المنهج لأنها في نشأتها القديمة سادها المنطق اليوناني خاصية في العصر الوسيط بعد التحول من أفلامليون في عصر آباء الكنيسة إلى أرسطو في العصر المدرسي. وفي بداية العصور الحديثة بدأت القطبية المعرفية بين الحاضر والماضي بعد أن اكتشف العقل وصدقه التجربة تعارض - أرسطو والكتاب المقدس

وأحوال الآباء مع مراجعة العقل والحس وتم إسقاط الفطاء النظري المعرفى الموروث، وأصبح الواقع عارياً من كل نظرية فتدخل العقل من أجل إيجاد بديل نظري والبحث عن طرق بديلة للمعرفة اعتماداً على اليقين الجديد، يقين البداهة العقلية والبداهة الحسية. ولو لا هذه القطيعة المعرفية في بدايات العصور الحديثة لما نشأت هذه الثورة المنهجية، ولما بدأ بهذا التلقي المنهجي في الغرب .

أما في الشرق، في الصين واليابان والهند، فلم تحدث هذه القطيعة المعرفية بين الماضي والحاضر، وتبنت الثقافات الشرقية نموذج التجديد والتعمير الذي انتهى إلى استبقاء المذاهع التقليدية في الحياة الخاصة وتقليد المذاهع الغربية في الحياة العامة. ولما كان الفن والصناعات المعرفية التقليدية وأساليب الحياة اليومية أقرب إلى الحياة الخاصة فقد سادتها المذاهع التقليدية التي لا تهدف إلى المعرفة وحدها بل أيضاً إلى السلوك ، جامدة بين النظر والعمل، بين النظرية والتطبيق، ارتبطت الأصلة بالمذاهع التقليدية، وارتبطت المعاصرة بالمذاهع الغربية. أصبحت المذاهع التقليدية تعبيراً عن الهوية، والمذاهع الغربية تعبيراً عن الاختلاف، الأولى تعبر عن الصدق والثانية تحقيق المنفعة. ولفظ المنهج ليس غريباً على الحضارة الإسلامية، فقد ظهر في كتاب ابن رشد الشهير في صيغة الجمع - الكشف عن مذاهع الأدلة في عقائد الله، والتعريف بما وقع فيها من الزيف والبدع المضللة، «فالمنهج» هنا يقى الطريق، و«مذاهع» طرق الاستدلال في فهم العقائد والتي تؤدى إلى التمييز بين الفهم

الصحيح والفهم الفاسد، بين العقيدة والبدعة، ليس في الرياضيات والعلوم الاستنباطية أو في الطبيعيات والعلوم التجريبية، كما استعمل لفظ منهج في الثقافة الإسلامية كما هو الحال في «منهج البلاغة» المنسوب إلى علي بن أبي طالب، ويعنى أيضاً الطريق، طريق الكلام، والكلام ليس مجرد صوت بل هو تعبير عن فكر ورؤية ومعايير للسلوك .

كما أن اللفظ ورد في القرآن الكريم «ولكل جعلنا شرعة ومنهاجاً»، واستعمل لفظ المنهاج وليس المنهج. فالمنهاج هو الطريق أو الشريعة في حين أن المنهج مجرد طريقة في الاستدلال، المنهاج أسلوب حياة، نظام أخلاقي واجتماعي وسياسي في حين أن المنهج أقرب إلى طريقة النظر، وفي الحضارات الشرقية كان المنهج والموضوع شيئاً واحداً، فلا يوجد منهج مستقل عن الموضوع، آلة خارجة عن تطبيقها في ميدان، المنهج موضوع متحقق، والموضوع منهج مطبق، والمعنى متعدد بهما معاً، الموضوع يفرض منهجه من ذاته، والمنهج يفرض موضوعه من ذاته، هكذا كان يفعل صانع الخزف في الصين، (الرسام في اليابان، والمثال في الهند، والفنان في مصر القديمة)، وحدة المنهج والموضوع وجدة مبنية، ووحدة الذات والموضوع، الطريق والنهاية، المقدمة والنتيجة، البداية والنهاية، الخلق والبعث، إذا وضع المنهج ووضع موضوعه، وإذا وضع الموضوع فرض منهجه .

وفي الغرب بدأ المنهج معايناً للموضوع لأن الموضوع كان معايناً

المنهج قبل العصور الحديثة. كان الإيمان تسلیماً دون برهان، وكان أرسطو المعلم الأول، المعصوم الذي لا يخطئ، وكانت أقوال الآباء أيضاً تعيناً عن تجسد الروح القدس في التاريخ. ثم انهار كل ذلك بعد إعمال العقل وال التجاء إلى التجربة. ونشأت المناهج معاصرة لموقفها في بداية العصور الحديثة. العقل متريض باللامعقل، والتجربة معاصرة للنظر. المنهج ضد الموضوع، والموضوع ضد المنهج، العقل لا يقبل إلا ما كان عقلياً متسقاً مقدماته مع نتائجه. ووجد خالته في الرياضيات التجريبية لاتقبل إلا ما كان محسوساً قابلاً للقياس فوجدت في المحسوسات والمجربات والظواهر الطبيعية خالتها. مقياس الصدق في المنهج العقلاني اتساق المقدمات مع النتائج، وفي المنهج التجريبي تطابق الحكم مع التجربة. كان الموضوع ضد المنهج في العصر الوسيط فاصبح المنهج ضد الموضوع في العصور الحديثة. ولم يقع الوئام بين المنهج والموضوع إلا أخيراً في الظاهريات في نهاية العصور الحديثة، والحضارة الغربية على وشك الأفول، والعصور الحديثة على وشك غلق الأقواس

وفي الحضارة الإسلامية تتأكد وحدة المنهج والموضوع كما هو الحال في الحضارات الشرقية. فالوحى وهو الموضوع الأول هو في نفس الوقت منهج العقل والبرهان نظراً لموافقتها صحيحة المنقول لمصريح العقول. والطبيعة أيضاً الموضوع الثاني لها تخضع لنظام العقل من خلال القانون. فتنسيق الطبيعة هو تنسيق العقل. والنظر في

الآفاق وفي النفس يؤدي إلى نفس الحقيقة، وفي الأرض وفي النفس آيات اليقين . والتلويل هو أداة الربط بين العقل والوحى إذا ما بدا تعارض ظاهري بينهما من أجل التأكيد على وحدة المنهج والموضوع.

ثانياً: المنهج في الغرب:

ارتبط المنهج في الغرب بمنطق اليونان بحيث لم يعد هناك فرق بين المنهج والمنطق. المنطق هو منهج الفلسفة لما كانت الفلسفة هي عالم البرهان، ولما كان الغالب على منطق اليونان منطق القضايا الذي يقوم في معظمها على الشكل وليس على المضمون كان مقياس الحقيقة فيه اتساق النتائج مع المقدمات، يكون العلم صحيحاً ما دامت أشكال الفكر فيه صحيحة . وقد لخص المسلمون ذلك في قولهم: المنطق أما تصور أو تصديق . والتصور ينال بالحد، والتصديق ينال بالبرهان. أما الاستقراء فقد كان هامشياً في المنطق بالرغم من الاتجاه الطبيعي التجاري عند أرساطو .

وكان المنطق نوعين، وكما لخص المسلمون، منطق اليقين: المسوّلات، والعبارة، والقياس، والبرهان، ومنطق الظن: الجدل، والسفسطة، والخطابة ، والشعر كان الفلاسفة يستعملون منطق اليقين في حين كان السوفسيطائيون والخطباء والشعراء يستعملون منطق الظن. ولم تكن هناك غلبة لأحد المنطقين على الآخر، وكانت ممارسة التفاسيف والكلام سابقة على تطبيق قواعد المنطق. كانت هذه القواعد مجرد تجريد للتفكير والكلام بالفعل، فلما جاء عصر آباء الكنيسة في القرون الخمسة الأولى كان منطق الظن هو السائد على

منطق البرهان، فقد كان آباء الكنيسة الأوائل في معظمهم خطباء، وكانت الخطابة أحد وسائل الدفاع عن الدين عند المحامين والوعاظ الآباء. كانت أساليب البلاغة وطرق البيان أسرع في الإقناع، وأقرب في الإيحاء، وأقرب إلى الثقافة الشعبية وإيمان العوام. وقد قوى ذلك اعتماد عصر الآباء على أفلاطون الذي تسود فلسفته الأسطورة والشعر وفنون الأدب والبلاغة.

وفي العصر الوسيط المتقدم من القرن التاسع حتى القرن الحادى عشر أو المتأخر من القرن الثانى عشر حتى الرابع عشر نحو المنطق من منطق الظن إلى منطق البرهان، ومن الجدل والسفسطة والخطابة والشعر إلى المقولات والعبارة والقياس والبرهان. فقد تحول الاختيار من أفلاطون إلى أرسطو بعد أن اكتشفه بوبتيوس في القرن الخامس في نهاية العصر الكلاسيكي، وقام بشرحه وتقديمه للناس، وكان لترجمة الفلسفة الإسلامية، أثر كبير في هذا التحول من الخطابة إلى البرهان، ومن الإقناع إلى الاستدلال. فقد قدم الإسلام نموذج وحدة الوعي والعقل والطبيعة في مقابل النموذج السائد مفارقة الوعي للعقل والطبيعة وكيديل عنه.

سادت - العصر الوسيط الفنون - المرة السابعة: الثلاثى، المنطق والنحو والبلاغة، والرباعى: الحساب، والهندسة ، والموسيقى، والفلك.. ومن الثلاثى ساد المنطق على النحو والبلاغة، وفي الرباعى ساد نظام العقل تحت تأثير علماء المسلمين. كان المنهج هو التقين والتطليم من أجل اعطاء ثقافة العصر. ثم بعد ذلك يبدأ الجدل دفاعاً عن العقيدة

والنقاش بين الخصوم كما هو الحال في جدل المتكلمين .

وأضاف العصر الوسيط على المنهج الاستدلالي القديم منهجه التأويل كما بدا في نظرية المعانى الأربع للنون الدينى: المعنى الصرفى، والمعنى المجازى، والمعنى الأخلاقى ، والمعنى الروحى. أصبح المنهج فى مواجهة موضوع هو الكتاب المقدس بعد أن كان فى مواجهة عقيدة فى عصر الآباء أو فى مواجهة نفسه عند اليونان. ونشأ الصراع بين أنصار المعنى الصرفى من ناحية وأنصار المعانى المجازية والأخلاقية والروحية من ناحية أخرى كما هو الحال بين الأشاعرة والمعتزلة أو بين المتكلمين وال فلاسفة دفاعاً عن اللفظ حتى ولو أدى إلى التشبيه أو دفاعاً عن المعنى حتى ولو أدى إلى التنزية .

وفي العصر الحديث بدأ المنهج فى التطور بعد القطعية المعرفية بين الماضي والحاضر، ورفض المصادر القبلية للمعرفة، الكتاب المقدس، وأقوال الآباء، وأرساطن، و بطليموس، بدأ العقل يواجه نفسه، ما مقياس الصدق؟ ويواجه الطبيعة ما مقياس التحقق؟ وبدأ الوعي الأوروبي يضع نفسه منهجياً على نحو ثانى: منهج عقلى ومنهج تجريبى . الأول مستنبط من الرياضيات والثانى مستقى من العلوم الطبيعية. أسس الأول ديكارت ، والثانى بيكون.

قام المنهج العقلى على نقطة بديهية هي الكرجيتتو «أنا أفكر فانا إبن موجود» ولكن يكون الفكر صحيحاً عليه اتباع قواعد أربع : الأولى الواضحة والتمييز في إدراك الأشياء، الشيء الواضح بذاته، المتميز عن غيره والثانية التحليل، تحليل الأشياء لو كانت مركبة من

أجل إدراك كل جزء منها على حدة بوضوح وتمييز، والثالثة التركيب تركيب الأجزاء في كلها الأول، والرابعة المراجعة للتأكد من صحة القواعد وحسن التطبيق وعدم الخطأ أو التسيان، ويسبق ذلك الشك في كل الموروث من أجل تطهير العقل من كل التقين السابق وتقليد القدماء.

وقام المنهج التجريبي على نقطة بدائية أخرى هي أن الحواس مصدر للمعرفة وأن صدق الحكم في مطابقته الواقع من خلال الحواس، وبالتالي تم استبعاد كل ما لا يمكن التحقق من صدقه في الواقع المشاهد والعالم المدرك، ويتم ذلك بعد تهطير الذهن من أوهام الجنس وكل ما يتعلق بأوهام الإنسان من حيث هو كذلك، ومن أوهام الكهف وكل ما يتعلق بالمازاج الفردي، ومن أوهام السوق وكل ما يتعلم الفرد من الناس دون التتحقق من صدقه، ومن أوهام المسرح وهو ما تراكم عبر المعرفة التاريخية الطويلة من الروايات والموسيقات.

ثم جاءت مرحلة ثانية في الفكر المنهجي الغربي عندما تحول العقل إلى جدل، والتجربة إلى تحليل، فقد كان العقل في القرن السابع عشر سوريا رياضيا فارغا ثم تحول إلى خطابة ومقابل والتأثير للجماهير في القرن الثامن عشر عند فلاسفة التثوير .

فقمت الثورة الفرنسية، ومن ثم بيز العقل الجدل القادر على إدراك التناقضات في الفكر بين الملكية والشورة، وبين الشيء ونقائه، وتأسس المنهج الجدل عنده ليجعل من أجل الكشف عن التناقضات في الفكر والواقع، في العقل والتاريخ، واستطاع المنهج الجدل فهم

كل شيء وتركيب كل تناقض، ثم تحول على يد ماركس إلى جدل مادي في المادة الجدلية راداً الروح إلى المادة بعد أن ردتها هيجل إلى الروح، كما تحول على يد انجلز إلى جدل الطبيعة بعد رد العقل إلى الطبيعة ثم حدث رد فعل عليه في المنهج التحليلي من أجل العودة من جديد إلى الجزء لا الكل وللمنتهى في الصفر وليس المنهى في الكبر، فالتحليل رد فعل على التركيب، وطبق التحليل المركبات المحسنة فنشأت الوضعية، كما طبق في اللغة فنشأت الوضعية المنطقية . ثم تحول التحليل من مجرد منهج إلى فلسفة في الفلسفة التحليلية، وقد راجت حتى أصبح العصر كله عصر التحليل، والحضارة الغربية كلها حضارة التحليل .

وفي المرحلة الثالثة بدأ الوعي الأدبي يتجاوز ثنائيته المنهجية الأولى المنهج العقلى والمنهج التجربى ، وثنائيته المنهجية الثانية المنهج الجدلى، والمنهج التحليلي إلى وحدة المنهج، المنهج الظاهراتى أو المنهج الشعورى الذى يحلل الظواهر باعتبارها تجارب حية فى الشعور، فالظاهرة معنى، يدركه الشعور إدراكاً مباشرًا لتحويل هذا المعنى إلى ماهية، ويكون هذا المنهج من ثلاثة خطوات الأولى التوقف عن الحكم على الأشياء المادية الموجودة في المكان، خارج الشعور قبل أن تتم عملية الإدراك، ووصفها بين قوسين ، وإخراجها خارج دائرة الانتباه، والثانية بناء الماهية في الشعور وقلب النظره من الخارج إلى الداخل و من المكان إلى الزمان . فيتحول الخارج إلى الداخل ويصبح الشعور ذاتاً ومنسوباً في نفس الوقتقصدأ

متباولاً بين قابل الشعور ومضمون الشعور، بين العقل والتجربة، ثم تائس التجربة المشتركة من أجل إعطاء اليقين لتحليل الشعور الفردي. فالموضوعية إنسانية وليس تجريبية، اتفاق الماهية بين الذوات وتطابق التجربة مع الآخرين، والثالثة الإيصال حتى لا تختلط الماهيات. فالظاهرات أيضاً نظرية في الوضوح في النهاية وليس في البداية ، بعد عملية الإيصال .

وفي المرحلة الرابعة والأخيرة عاد الفكر المنهجي الغربي إلى ثنايته العدمية من جديد في المنهج البنائي الذي أراد التركيب من جديد، تركيب الظواهر في بناء صورية مجردة في الذهن أم في الواقع ثم في المنهج التفكيكي الذي أراد تفكك البنية والانتهاء إلى لا شيء، واتجه المنهج البنائي إلى اللغة والأساطير والفكر البدائي كما وضع ذلك في الأنثروبولوجيا. ثم تحول إلى علم النفس والتحليل النفسي، وتاريخ العادات النفسية والجنون دراسة المرضى والمهوشين والخارجين على القانون .

ثم حدث رد فعل الأخير على البنائية في المنهج التفكيكي الذي يريد إنتهاء العقل وألة العقل والانتهاء إلى لا شيء، فالتفكير كتابة، والكلام صوت، والمعنى حرف، والأشياء كلمات، والوجود عدم . انتهى التكريب والنظم والتنسيق إلى يمر رجعه ، ولم يعد يبقى إلا التحليل والغوص والعدمية، ينخر التفكك في كل شيء حتى لا يبقى ما يفككه فيفكك ذاته ، وينتهي العالم كما بدأ أول مرة دون بعث أو حساب .

ثالثاً: المنهج عند المسلمين

استعمل المسلمون كلمة طريق ، وغالباً في صيغة الجمع «طرق الدلالة على المنهج والمناهج في «طرق النظر» ، بالرغم من استعمال ابن رشد للفظ «مناهج» وعلى ابن أبي طالب لفظ «نهج القرآن الكريم لفظ «منهاج».

ظهر المنهج عند المتكلمين في نظرية العلم، المقدمة الأولى في علم الكلام، إجابة على سؤال كيف أعلم؟ تستبعد الشك والظن والوهم والجهل والتقليد، ويستيقى العلم كمطابقة مع المعلوم، والعلم بدبيه ضروري أو استدلال نظري، والطريق إليه الناظرة، فالناظر الصحيح يفيد العلم، والنظر واجب بالسمع والعقل، بل هو أول الواجبات، وطرق النظر: التعريف، والاستدلال، والقياس، وقياس الفائض على الشاهد أو التمثيل، والمقدمات قد تكون قطعية أو ظنية والأدلة نقلية أو عقلية، والدليل التقلي وحده فلن لأنه يعتمد على اللغة وأسباب النزول والناسخ والنسوخ والمحكم والمتشابه ، والظاهر والمؤول ، والمجمل والمبين، وقد ظهر هذا المنهج بوضوح في مشكلة العقل والنقل بين المعتزلة والأشاعرة، العقل أساس النقل عند المعتزلة لذلك وجب التأويل في حالة التعارض حفاظاً على التنزيه، والنقل أساس العقل عند الأشاعرة ولو أدى ذلك إلى التشبيه . وفي كلتا الحالتين المنهج الكلامي منهج دفاعي، يعقل الإيمان ولا يتسامل عنه، كل فرق تجادل في فهمها وتتأول لها العقائد دفاعاً عن نفسها ومجوهاً على الفرق الأخرى، فتحول الجدل إلى مقارعة للخصوم من أجل الانتصار

عليهم وإثبات الفرق الناجية في مقابل الفرق الضالة، لذلك ذم الفقهاء الكلام والمتكلمين، وأدانوا الجدل والمجادلين اعتماداً على نقد القرآن للجدل، «وكان الإنسان أكثر شئ جدلا».

ثم حول الفلسفة الجدل إلى برهان... واستعملوا المنطق طريقة إلى اليقين، وأصبحت المتحولات والعبارة والقياس مقدمات إلى البرهان فإذا ما نقص البرهان ظهر الجدل والسفسطة والخطابة والشعر وقد أحكم الفلسفة المنهج العقلى البرهانى وعرف ابن رشد الفلسفة بأنها النظر فى الموجودات بحسب ما تقتضيه طبيعة البرهان، ولم تعد الفلسفة بحاجة إلى تبرير الدين كما كان الحال فى علم الكلام لأن الفلسفة والدين حقيقة واحدة وغاية واحدة وإن اختلفا الطريق إلى الفلسفة عن طريق العقل، والدين عن طريق الوحي كما بين الكندى وفي حالة التعارض فإن التلويل يدرا هذا التعارض ، فلقد تم التعبير عن الوحي مجازاً من أجل مخاطبة أكبر عدد ممكن من الناس بصرف النظر عن مستوى تعليمهم . أما الخاصة فهم القادرون وحدهم على البرهان، وأصبح العقل مركز كل شئ» الله العقل الفعال، والإنسان العقل المنفعل أو العقل بالقوة أو العقل بالملكة أو العقل المستفاد حتى يصير عقلاً بالفعل والإنسان حيواناً ناطقاً، وأهم قوة في النفس القوة الناطقة.

ثم حدث رد فعل على هذه العقلانية الشاملة، الجدلية عند المتكلمين والبرهانية عند الفلسفة في منهج النونق عند الصوفية، النونق في مقابل النظر، والإشراق في مقابل الاستدلال، والقلب في

مواجهة العقل، والبصيرة في مواجهة البصر، فالمعرفة على مستويات، المعرفة الحسية من خلال الصواس وتعطى ظاهر الموجودات، ثم المعرفة العقلية من خلال العقل وتعطى صورة الموجودات، والمعرفة الكشفية من خلال القلب وتعطى حقيقة الموجودات الأولى علم اليقين، والثانية حق اليقين، والثالثة عين اليقين، وهو منهج عملي قبل أن يكون نظريا.. يقسم أولاً على الرياضيات والمجاهدات قبل أن يكشف الله الحجاب. يبدأ بالطريقة كي يصل إلى الحقيقة والناس على مراتب في العلم، العامة ولهم المحسوسات، والخاصة ولهم المعقولات، وخاصة الفاصلة ولهم الواقع والطوالع والد الواقع، ويتمكن الطريق من الأحوال والمقامات، فالحالات تحصل من عين الجود والمقامات ببذل المجهود، الأحوال علامات على الطريق تتبىء السالك بغير المرحلة. وهي علامات مزدوجة بين السلب والإيجاب مثل الخوف والرجلاء الهيبة والأنس، السكر والصحو والفقد والوجود، السلب عندما يعبر إلى المرحلة التالية ، والإيجاب بعد أن يتعود عليها، والمقامات مثل التوبة ، الشكر، الفقر، الزهد، الرضا، الصبر، التوكل، انورع، الغناء، المنهج الصوفي إذن منهج صاعد ، طريق إلى الله، إسقاط الأوصاف الدنيا والتخلص بالأخلاق الإلهية، فلا يرى الصوفي إلا بعين الله مثل وحدة الشهود ثم يصبح صعيده الله والعالم شيئاً واحداً كما هو الحال في وحدة الوجود .

ثم جاء رد فعل على هذا كله في المنهج الأصولي في علم أصول الفقه الذي يرفض أن يجعل المنهج مجرد جدل أو نظر بل هو فهم

علم لتحقيق الشرع، وليس العمل هو الطريق الموصى، فهو طريق فردي ذاتي، محفوف بالمخاطر، يعني بالتأويل، ويترك التنزيل، يقصد بالإنسان إلى الله دون أن ينزل بالشرع إلى العالم. ويقوم المنهج الأصولي على وضع منطق للأفعال يسمى الأحكام التكليفية وجعلوها خمساً، الفرض أو الواجب وهو الضروري إيجاباً وعكسه المحرم أو المحظور وهو الضروري سلباً، ثم المندوب وهو الاختياري إيجاباً وعكسه المكروه وهو الاختياري سلباً، وما بين الإيجاب الضروري والاختياري والسلب الضروري والاختياري هناك المطلول أو المباح، الطبيعي الذي تكمن الشرعية في وجوده، البرامة الأصلية والنظرة الأولى، هذه الأحكام التكليفية الخمسة من جهة الفاعل تقوم على أحكام وضعية خمسة أخرى من جهة ميدان الفعل، فكل فعل له سبب، وشرط، ومانع، وريفي عزيمة أو رخصة، ويكون صحيحاً أو باطلان، السبب مثل المصلحة للتقوى، والشرط مثل الوضوء، والمانع مثل الحين، والعزم وقوفها والرخصة قاعدة أو مستقيماً، والصحة عدد الركعات والبطلان الزيادة عليها أو النقصان منها فال فعل حر له عدة مستويات من الوجوب ويتحقق في ميدان متشابك في عالم ضروري، ويقوم منطق الفعل من أجل تحقيق المقاصد، مقاصد الشارع ومقاصد المكلف ومقاصد الشارع أربع: وضع الشريعة ابتداء، تعبيراً عن المصالح العامة فالمصالحة أساس التشريع، ثم وضع الشريعة للامتثال أي للاقتئاع الحر، ثم وضع الشريعة للإفهام أي لفهمها دون إجبار وأخيراً وضع الشريعة للتکلیف أي للتحقيق كنظام طبيعي

مثالي للعالم.

ومن أجل الحصول على هذه الثمرة يطبق منطق اللغة المزدوج على مصادر الشرع الأربعة: الكتاب، والسنّة، والإجماع والقياس مثل: الظاهر والمقول، الحكم والتشابه، المجمل والمبين، المطلق والمقييد، العام والخاص، الأمر والنهي لبيان أبعاد النص المختلفة كصورة فنية أو متعدد في المواقف أو كتوضيح لمعنى أو كتطبيق على حالة خاصة فرداً أو جماعة أو توجيهها لفعل إيجابي أو سلبي ويؤخذ في الاعتبار أيضاً السياق، لحن الخطاب، وقحوى الخطاب، والمسكوت عنه، ما لم يصرح به الشرع إلا بالإشارة .

أما مصادر الشرع فالكتاب الذي أعطى الوحي فيه، في المكان بدليل أسباب النزول، وفي الزمان بدليل الناسخ والمنسوخ، والسنّة أول تطبيق للوحي في التاريخ كتجربة نموذجية، والإجماع الوعي الجماعي في الاستدلال والمشورة، وأخير الاجتهاد والوعي الفردي لإعمال النظر وإبداء الرأي القائم على تحليل العلل، وتعديلة الحكم من الأصل إلى الفرع لتشابه بينهما في العلة.

هذا أيضاً منهج كلي شامل يجمع بين النظر والعمل، بينما المنطق والسلوك، بين العقل والتجربة، بين الاستبساط والاستقراء، بين الاستدلال الفردي والاستدلال الجماعي، بين المعرفة المباشرة عن طريق الحس والعقل والوجودان والمعرفة التاريخية عن طريق الرواية وهو المنهج الذي أبقى على المسلمين في التاريخ وحفظ لهم إبداعهم واستقلالهم الحضاري .

رابعاً: خاتمة التنظير المباشر للواقع :

وإلان وبعد استعراض المنهج في الغرب ومدى المسلمين ، ما موقفنا من هذه الازدواجية المنهجية بعد أن سادت متاهج الغرب المتعددة ونقلنا في ثقافتنا صراعها التاريخي والعلمي حتى توارى فكرنا المنهجي القديم تحت دعوى الفكر الدييني أو الفكر القديم في مقابل الفكر العلمي أو الفكر الحديث؟ ما العمل أمام هذه التجزئة المنهجية الواقدة من الغرب والاجحاف بالوراثة تكراراً للأنكار الشائعة أو استسهلاً للتقليد؟

ما لاشك فيه أنتا منذ مائتي عام، ومنذ فجر النهضة العربية الحديثة نصارع التقليد وندعم إلى إعمال العقل سواء في تيار الإصلاح الدييني أو في الفكر السياسي الليبرالي أو في التيار العلمي العلماني، وقد أصبح العقل والعقلانية والتور إحدى مطالب العصر. وإذا كنا مازلنا نعاني من سيادة الامتعقول وشيب الترشيد والتخطيط فإن التنظير المباشر للواقع اعتمدنا على المنهج العقلى ك حاجة من حاجات العصر بصرف النظر عن شأنه في وعيينا المعاصر من الراشد أو من الوراثة ضرورة ملحة نظراً لغياب التخطيط الكلى في الحياة الخاصة وال العامة. وكثيراً ما حكم المفكرون العرب المعاصرون على حياتنا الفكرية والثقافية بالخطابة والإنشائية والشعرية والصوتية والكلامية والانفعالية مع التركيز خاصة على الخطاب السياسي والخطاب الإعلامي، وهذا تبدو الحاجة إلى المنهج

العقل الواضح الخطوات من أجل المساهمة في الانتقال من مرحلة الخطابة إلى مرحلة التفكير، ومن بلافة الانشاء إلى منطق الفكر.

ولما كان العقل مجرد أداة فإن موضوع التفكير هو الواقع والتحديات العصرية من احتلال وتخلف وتجزئة وقهر وتبعية وسلبية وفسياع. ولا يمكن معرفة هذا الواقع معرفة انتبهامية كما يفعل الروائي أو الشاعر، معرفة كيفية خالصة لا يختلف عليها المبدع والمثقف، المعرفة الاحصائية الكمية ضرورية لمعرفة مكونات الواقع والبنية الاجتماعية. فلفة الاحصاء خير دليل على صدق الفكر : آثار الاحتلال ومظاهره الكمية في فلسطين ولبنان، مدى التجزئة وعمقها ومظاهرها وأسبابها، ألوان القهر وأنواع القوانين المقيدة للحربيات وكيفية صدورها، مدى التبعية في الغذاء والسلاح والتعليم، ومقدار السلبية في المشاركة في الحياة العامة بمؤشرات دقة خاضعة للقياس. لم يعد الفكر خطابة بل هو حكم كمن من أجل تغيير الدافع وإعادة التفاعل بين مكوناته وتهجيه مساره. مكذا فعل الأصولي القديم في مناهج البحث عن العلة منها السبب والتقسيم، إحصاء العلل احصاء كاملا تم تحديدها إلا واحدة تخضع للتجربة لمعرفة هل هي العلة الفاعلة أو الفاعلة أو المؤثرة أم الملائمة أو المناسبة ومن هنا لا يستبعد التنظير المباشر للواقع المنهج التجريبي الاحصائي الاستقرائي الذي يستطيع اعطاء صورة الواقع الذي يتم التعبير عنه بالقول والتنظير له بالفكر.

كما يتضمن التنظير المباشر للواقع بالإضافة إلى مناهج العقل

والاستدلال من ناحية ومناهج الحس والتجرية من ناحية أخرى مناهج الإدراك المباشر وتحليل التجارب الحية الفردية والاجتماعية، الإحساس بالناس والتاريخ بالأزمة والقهر، بالماضي والحاضر، وحمل هموم المستقبل للعالم والموطن، فالعلم قضية ، والبحث التزام، والمعرفة تحقق .

إن التحدى الآن ليس هو الأزمة بل المدخل إليها، ليس القضية بل طريقة التعامل معها ومعالجتها، فالأزمة في المنهج قبل أن تكون في الموضوع. شال الموضوع واحد منذ مائتى عام لماذا تخلف المسلمين وتقدم غيرهم كما سأله شكيب أرسلان، أسباب التخلف وشروط النهضة كما عرض مالك بن نبي . والأزمة في كيفية المقاربة، التشخيص والحل، الوصف والمخرج، الإدراك والتغيير . لذلك كانت معظم الاكتشافات الفكرية والعلمية ونقطات التحول في تاريخ الحضارات اكتشافات المنهج وتحولات المنهج، وقد دلما قال عمر بن الخطاب إن نصف الإجابة في طريقة وضع السؤال .

المنهج في دراسة الحضارات

د. محمد على الكردي^(*)

(*) أستاذ الحضارة الفرنسية بجامعة الاسكندرية.

لعل أصوب مدخل للحديث عن قضية المنهج أو المناهج في أي مجال من مجالات العلوم سواء أكانت دقيقة أو غير دقيقة، ونقصد بالدقيقة العلوم المنضبطة (رياضية أو تجريبية) والتي تسمى حالياً في لغة الحاسوب الآلية «صلبة» (hard)، وبالعلوم غير الدقيقة العلوم الإنسانية التي تعرف، في الأغلب ، بعدم موضوعيتها الكاملة لارتباطها بذاتية الباحث من جهة، وبالروى الثقافية والأيديولوجية المختلفة للدارسين من جهة أخرى نقول إن أصوب مدخل للحديث عن مناهج العلوم هو البدء الذي يتبع أصول الكلمات والغوص بحثاً عن جذورها . وذلك يقدر ما يشكل تاريخ أي لغة من لغات العالم أصدق مرآة لحياة الشعوب ودرجة تطورها وتقدمها . ومن الطريف حقاً أن ترتبط كلمة «الحضارة» (civilization) في العربية وفي اللغات الأوروبية بالعقل الدلالي نفسه الذي يردها إلى عالم الحضر والمدينة، وأن تقترب المفردة الأخرى – التي تقرن بها – وهي مفردة «الثقافة» (culture)، وإن لم تتطابق تماماً بين العالم العربي والعالم الغربي، لتأتى حول حقل النزع والحرث والإعداد والتشذيب والتهذيب . ولعلكم تذكرون قول عنترة، في هذا المعنى الأخير ، وأاصفاً

رحمه :

جادت يداي له بعاجل طعنة * بمثقب صدق الكعب مقوم
وكما أن مفهوم الحضارة والثقافة سوف تزوج معانيه وتتأرجح
دلائهما في العربية بين الإيجاب والسلب، فابتنا نعثر على الظاهرة
عينها في الحضارة الغربية . ذلك أن حياة الحضرة تفترض، من غير

شك، تقدما في العمران وازديادا في وسائل الراحة والرفاهية، ولكنها قد تعنى، في الوقت نفسه، ضرورة من التكاليف والزيادة والرياء، على هذا النحو نرى كاتبا كبيرا مثل «جان - جاك روسي» ينبرى لشجب المدنية الحديثة وإدانة ما يقدمه مجتمع الحضر من عروض ومشاهد وفنون تهدى الفطرة أو السليقة «الطيبة» للإنسان، تماما كما نرى أبو الطيب المتنبي يشجب الجمال الصناعي الذي تتكلفه ثبات الحضر ويثنى على حسن البدويات اللواتي يتميزن بالبساطة والجمال الطبيعي :

ما أوجه المضر المستحسنات به * كثوجه البدويات الرعایب
حسن الحضارة مجلو بتطوريه * وفي البداعة حسن غير مجلوب
وكذلك شأن الثقافة، فهى كما رأينا، تقييد الإعداد والتهدیب وتشير إلى الحدق والمهارة، وتؤدى إلى السيطرة على الطبيعة والظفر على الخصوم والأعداء؛ ولكنها، مثل العلم أو الإعلام المضل، قد تستخدمن استخداما سيئا وقد تحول إلى ما لا ينفع وإلى ما يزيد من شرور الدهر ونكباته. ألم يقل أبو الطيب وهو الخبير بشئون الحياة ودواءها:

وكاننا لم يرض فينا بربيب ال دهر حتى أعنانه من أعنان
كلما أنتب الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا
وأليس من شك فى أن هذه الإزدواجية يمكن ردها إلى نوع من
الاضطراب أو التأرجح في العلاقة التي كانت تقيمها ثقافات الشعوب
عبر تاريخها بين الطبيعة والثقافة؛ فالطبيعة بالنسبة للشعوب القديمة

كانت لا تفصل عن القوى الكونية وذلك بقدر ما كان الإنسان أو الكون المصغر (microcosm) نفسه جزءاً لا ينفصل ... عن الكون الكبير (macrocosm)، وهو الأمر الذي يفسر قيام علاقات اتصال بين دورة الكواكب ومصائر البشر ويبرر قيام العلوم الخفية القديمة من سحر وتنجيم في كنف علم الفلك نفسه، كما يفسر قيام الأساطير القديمة في عصور الوثنية، كما يفسر سيطرة فكرة القدر بصورة مأسوية على مصائر الناس وهو ماءعسته، في أسلوب فني رائع، المأساة اليونانية القديمة حينما أبرزت محاولة الإنسان الأولى في تأكيد ذاته وتحقيق استقلاله عن القوى الخارجية التي تحاول أن تحد من حرية وإرادة .

إن مفهوم الحضارة وثيق الصلة بالطبيعة، وذلك بقدر ما تشكل الحضارة ضرباً من سيطرة الإنسان على الطبيعة في صورة تقنيات وتنظيمات ومؤسسات، ويقدر ما تتصل الحضارة بكل ما يرفع مستوى معيشته ويؤكده رفاهيته عن طريق الارتقاء بالبناء والعمان، وكل ذلك يتطلب اصطناع العلم والتكنولوجيا والتخطيط أو «الهندسة الاجتماعية». وقد ربط المفكر الألماني «هيردر» (Herder) – فعلاً – بين الطبيعة والحضارة، الحضارة كمفهوم عقلي أو علمي لاعلاقة له بالإطار الاجتماعي، على أساس أن الثقافة هي، في الفكر الألماني، نتاج الروح (Geist). ولعل هذا الفصل يطابق ما نجده عند رائد المثلالية الألمانية «هيجل» من تمييز بين الروح والعرف أو قوله باختلاف «الفكرة» في الشكلية، وما نلاحظه عند «شينجل» من

تفرقة بين الثقافة كصيغة وبين الحضارة كتعين وتشكل يتبنيه «بالانهصار والزوال». ويذهب المؤرخ الألماني «نوربرت إلياس» إلى أن مصطلح الحضارة (courtesy) الذي دخل المانيسا عن طريق التأثير الفرنسي (courtoisie) أو الانجليزي وعن طريق الطبقة الحاكمة والبلاط الملكي لم يلق قبولاً، خلال القرن الثامن عشر، لدى المثقفين الوطنيين الذين روجوا لمفهوم الثقافة (Kultur) إلى درجة أن هذا المصطلح أصبح في كتابات الأنثربولوجيين مفهوماً شمولياً بالغ الاتساع يكاد يتراوح بين أبسط الأدوات وبين أرقى المذاهب الفكرية أو الفنية. إلا أن مفهوم الثقافة، وإن ظل بعامة مرتبطاً في الفكر الغربي بأنماط السلوك الاجتماعي أو بالتقالييد الاجتماعية المتوارثة، غالباً ما يربطه الدارسون الغربيون، حينما يخص الأمر الشعوب التي لم تحظ بقدر كافٍ من التقدم المادي، بينما اذاج أو ينماط من التكوينات الطبيعية أو البيولوجية المصرف وكأن ثقافات هذه الشعوب أنساق مغلقة لا تعرف التطور الذاتي أو التاريخي وكانتها لا تتغير إلا تحت تأثير الحضارة الغربية المهيمنة.

مهما يكن من أمر، فإن مصطلحى الحضارة والثقافة في الفكر الغربي حديثان نسبياً، فهما لم يشيعا إلا بدءاً من القرن الثامن عشر بالنسبة لمصطلح الحضارة (civilization) ومن القرن التاسع عشر بالنسبة لمصطلح الثقافة وذلك تحت تأثير المدرسة الرومانسية الألمانية. ونلاحظ أن مصطلح العمran الخلدوني ظهر خلال القرن الرابع عشر الميلادي، إلا أن أعمال بن خلدون لم تعرف، على سبيل

المثال، في فرنسا إلا من خلال ترجمة «سلان» (Slane) التي ظهرت بين ١٨٦٢ و ١٨٦٤.

ويبدو أن كلمتي حضارة وثقافة لم تتباوا را كمفهومين علميين إلا بفضل تطور العلوم الإنسانية، كما لم تستخدما بصفة الجمع أو التعدد، كما يقول «بروديل» إلا بعد عام ١٨٥٠، وهو ما يعني التحول من مفهوم الحضارة المنشى أي الغريبية إلى مفهوم الحضارات والثقافات، وهو مفهوم لا يميز إلا بالافتتاح على الشعوب الأخرى وزيادة حركة السفر والرحلات، ولعلنا نعلم أن أدب الرحلات هو المجال الرئيسي الذي نشأ في كنفه علم الأجناس الذي شاع فيما بعد تحت مسمى علم «الأنثربولوجيا» بكل فروعها المعروفة من فيزيائية واجتماعية وثقافية.

وبالرغم من برود مفهوم الحضارات خلال القرن التاسع عشر، فإننا لانلاحظ أي اتفاق بين المؤرخين على تحديد معنى المصطلح، فكاتب مثل «جيزو» (Guzot) يفهم الحضارة في دراسته «تاريخ الحضارة في أوروبا» و«تاريخ الحضارة في فرنسا» (١٨٢٩-١٨٣٢) بمعنى التقدم الاجتماعي والعقلاني، وهو المعنى الذي يبرز عند «كونتوريسي» وغيره من كتاب عصر التنوير السابق، إلا أن «جيزو» لا يعني بإيراز التطور أو التقدم «العقلاني» وإنما يسعى إلى اكتشاف نوع من التوافق بين السلطة السياسية وحركة الحرية، ويعتقد أن الحضارة هي، في جوهرها، تحقيق لهذا الاتساق أو التوازن بين السلطة والحرية، أما «جاكوب برخاردت»

(J.Burckhardt) في دراسته عن «ثقافة عصر النهضة في إيطاليا» (١٨٦٠) فإنه يبني تصوره للحضارة على «ثالوث» يربط بطريقة عضوية بين الدين والدولة والثقافة، وإن كان اهتمامه ينصب ، في الواقع، على إبراز القيم الفنية للنهضة الإيطالية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر على حساب دراسة السياق المادي والاجتماعي .

ويقوم تفسير «أوسفالد شبنجر» (O.Spengler) صاحب كتاب «انحدار الغرب» الشهير، للتاريخ على محاولة إدراك القانون الخفي أو «القدر» الذي يهيمن على سيرورته ويقوده من مراحل التضوء الثقافي إلى مراحل الحضارة أو المدينة التي تتجمد فيها الثقافة وتبدأ في التدهور والانحدار. وهو يفهم السيرة التاريخية على أنها حركة بيولوجية تخضع للميلاد والنمو والازدهار ثم الشيخوخة والفناء، من ثم، يرى أن كل ثقافات العالم، التي يفرد لها دراسات مطولة، تنمو وتنطلق وتتبلور وفقاً لقوانين خاصة بها ووقفاً عليها، ثم تحول إلى حضارة أو مدينة فتأخذ في التقوّع والتقلص والأفول .

وبيلور «شبنجر» (١٩٣٦-١٨٨٠) في سبيل فهم الحركة الداخلية للتاريخ بعض المفاهيم التي يراها أساسية مثل مفهوم «التماثل» الذي يحكم الأشكال الحية على عكس «القانون الكمي» أو الرياضي الذي يحكم حركة الطبيعة وأشكالها «الميتة». ويقصد «شبنجر» بالتماثل ليس مجرد التشابه الظاهري الذي يجده بعض المؤرخين بين شخصيات مثل المسيح وبودا أو بين نابليون ويوسيوس قيصر

والاسكندر الكبير أو بين مدن مثل فلورنسا وأثينا، وإنما التشابه العضوي الذي يقوم على منطق حركة التاريخ، وهو ما لا يتم إلا باستخلاص نوع من «مورفولوجي» التاريخ العالمي أو «مورفولوجي» العالم - التاريخ، شريطة أن يكون فهم هذا التاريخ مرتبطا بسيرورة الحياة، وليس بما ظهر منه من أشكال مستقرة وثابتة، وهنا يميز الكاتب بين مفهوم «العدد الرياضي» أو الحسابي، الذي يتلام مع دراسة الطبيعة في صورها «الآلية»، وبين المفهوم الذي يؤمن به دراسة التاريخ البشري، وهو «العدد الكرونوولوجي» أو الزمني.

من ثم، لا تعنى دراسة التاريخ تصنيف الأحداث السياسية أو الروحية الظاهرة ولا أسباب هذه الأحداث وأثارها العلمية الملحوظة وفقا للحقب التاريخية المترافق عليها، وإنما الكشف عن الدالة العميقية الكامنة وراء ظهور هذه الأحداث عبر عصور التاريخ المختلفة؛ وكذلك صياغة اللغة التعبيرية العامة التي يمكن أن تربط بطريقة عضوية بين جميع الأشكال الثقافية المميزة لشعب من الشعب والدالة على روحه (*volkgeist*) سواء أكانت أحداثا سياسية أو تصورات عقلية ونفسية وروحية أو أشكالا فنية. وهو ما يعني أن لكل عصر روحه التاريخية المميزة له والمشكلة لعصره خاصة، وأن الفيلسوف الحقيقي هو الذي فهم عصره وعبر عنه في كتاباته بطريقة عضوية متلاحة بالغة العمق والتماسك.

أما «أرنولد توينبي» (A. Toynbee) (١٨٨٩ - ١٩٧٥) فلا يقيم هذا فاصلابين مفهومي الثقافة والحضارة وتشير لفظة

الحضارة لديه، في الأغلب ، إلى الحركة والرحلة وإلى الكلبة التي لا تتجرأ لا إلى الظروف المفجعة أو الفانية وما قد تسميه نهاية المطاف. من ثم فالحركة هي التي تبعث الحياة في حضارات الشعوب وثقافاتها وإنعدامها أو توقفها هو الذي يحكم عليها بالانحدار والزوال. ويمكن رد العالم الحضاري ، في نظر «توبينبي» إلى ثلاثة رئيسية :

أ- عامل التحدي الذي يسمع بقهر ظروف البيئة الجغرافية وعقباتها الطبيعية، بل إن هذه العقبات نفسها تعد أكبر حافز نفسى يدفع الشعب إلى التغلب عليها وبناء الحضارة .

ب- يعد الدافع الدينى أيضاً، فى نظره، أهم من نقل التقنية والابتكارات الآلية بالنسبة لحركة الشعب وتقديمها.

ج- يعتقد «توبينبي» أن الانتقال من الثقافات البدائية إلى الحضارة لا يتم عن طريق التطور البطلى، وإنما عن طريق التحول (mutation).

وإذا كان «توبينبي» قد اهتم كثيراً بإبراز العوامل الثقافية والروحية في تطور الحضارات، إلا أنه أهمل تحليل دور التقنية والعوامل الاقتصادية والاجتماعية في تفسير حركة التاريخ. بل إنه يذهب إلى حد الاعتقاد بخرافة فكرة التقديم ولا يعتد إلا بعامل «الطبيعة الروحية» التي تهيمن، في نظره على مصير البشرية .

مدرسة العوليات الفرنسية ومذاهيم «التاريخ الجديد».

ربما يسأل متسائل عن سبب اختيار هذا المثال؛ وفي الواقع إذا

كنت اختبرت «مدرسة الحوليات الفرنسية» (*les Annales*) نموذجاً فذلك مرده إلى أن مجموعة المؤرخين الذين تضافروا على تكوينها منذ عام 1929 - وعلى رأسهم «لوسيان فيفر» و«مارك بلوك» - قد لعبوا دوراً مهماً ورئيسياً في تحويل التاريخ من منهج يقوم في معظمه على سرد الأحداث وتركيز الاهتمام على الطبقات الحاكمة والمؤسسات الفوقيّة، وذلك لسبب بسيط هو ارتباط أوائل المؤرخين المحدثين بالسلطة وتنظيم الأرشيفات والوثائق الخاصة بالدولة، إلى منهجية متعددة ومفتوحة على العلوم الإنسانية والاجتماعية الصاعدة، ويوجّه خاص علم الاقتصاد والمجتمع والسكان في البداية ثم بقية العلم، كما سوف نرى.

لقد تطورت ونمّت «مدرسة الحوليات» في ظل القسم السادس - الخاص بالعلوم التاريخية - من «المدرسة العلمية للدراسات العليا» (E.P.H.E) بجامعة السريون عام 1946، وذلك بهدف تأسيس فرع لبحث التاريخ الاجتماعي يقوم على نظام «السمinar» (قاعة البحث) الذي ابتكره الباحثون الألمان. ولقد كان إنشاء هذا القسم دور كبير في تطوير الدراسات التاريخية من دراسات فردية ضيقية إلى دراسات عملية تقوم على البحث والمناقشة وترتبط المناهج الاجتماعية والإنسانية، ولقد لعب «فرناند بروديل» الدور الأساسي في إنشاء هذا القسم بعد وفاة «لوسيان فيفر» ومقتل «مارك بلوك» عام 1941.

وأعلم أهم عمل تاريفي لبروديل هو رسالته للحصول على

الدكتورة وعنوانها «البحر المتوسط وعالم البحر المتوسط في عصر فيليب الثاني»، حيث يبرز دور القوى الثابتة والدائمة، وهي عادة الأطر والسمات البيئية والجغرافية، ودور العوامل البشرية المتفاعلة معها في تحريك التاريخ، وتعتمد هذه الدراسة على بذرة مفاهيم جديدة مثل «التاريخ الطويل المدى» أو الثابت الذي يرتكز على تحليل وكشف البنى الاقتصادية والجغرافية والاجتماعية التي لا تتطابق بالضرورة مع التقسيمات المعروفة من عصور وقرون وحقب التي كانت تخضع في تقييماتها السابقة لمعايير الأحداث السياسية ونتائج النظم الحاكمة.

ولقد كان لهذه الدفعـة، التي شكلتها دراسات «لوسيان فيفر» و«مارك بلوك» من قبل عن المعتقدات والبني العقلية وأسس المجتمع الريفي والقطاعي ودراسات «بروديل» ومنها أيضاً «هوية فرنسا» التي تقوم على ترابط دينامي عميق بين المكان (البعد الجغرافي) والزمان (البعد التاريخي) - الأمر الذي يذكرنا بدراسات جمال حمدان عن عصرية المكان - ودراساته القيمة التي ترجمها إلى العربية الدكتور ماهر شفيق وعنوانها : **المضمار المائية والرأسمالية**، دور كبير في بذرة الدراسات الحديثة التي عرفت تحت مسمى «التاريخ الجديد» على شاكلة «النقد الجديد» و«رواية الجديدة» وغير ذلك من تيارات التجديد الثوري، ويعتمد المنهج الجديد على إبراز حركة البنى التاريخية العميقة والثابتة ودراسة المشهد والجماعات والطبقات وليس الأفراد، والاهتمام بالواقع المائي من

ملبس ومسكن وطرق للمعيشة وكل ما يتصل بالحياة اليومية، وبالأنماط العقلية والتصريرية من اعتقادات وعادات وتقالييد خاصة بالموت والميلاد والأعياد والاحتفالات. ومن هنا جاء قيام هذه الدراسات التاريخية على الإفادة من علوم الاجتماع والانثropolجيا أو الانثروبولوجيا الحديثة والاقتصاد وعلم النفس والتحليل النفسي.

وإذا كان «التاريخ الجديد»، كما طورته مدرسة المسؤوليات الفرنسية، يعني بهذه الجوانب الأنثروبولوجية من حياة الشعب (التي كان يعني بها مؤرخون سابقون على شاكلة ابن ايس وغيره ولا يهتم بها المحدثون)، فإن ذلك كان نوعاً من رد الفعل ضد الدور الذي لعبه التاريخ الوضعي، وليد القرن التاسع عشر، الذي مزج بين تاريخ المجتمعات وتاريخ المؤسسات وبينها وبين أشكال السلطة وحياة الطبقات السائدة والمهيمنة على الصعيد الاجتماعي؛ ولعل هذا الدور الوضعي للتاريخ قد بدأ خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر حينما عملت الدولة على تأسيس الأرشيفات الحكومية وتجميع الوثائق الرسمية في دور حفظ بطريقة منتظمة، وحينما التفت الباحثون والمؤرخون، وكثير منهم مرتبط أساساً بجهاز الدولة، إلى أهمية دراسة جهاز الحكومة وتنظيماتها المختلفة وإلى ضرورة ربط حياة الأفراد بالحياة العامة والرسمية نظراً لما ينطوي بالدولة، في فترة تطوير وتأسيس آليات الحكم الحديثة. من توجيه وإرشاد وبحث مفاهيم التنشئة الضرورية لإحداث عملية التقدم والنمو الاجتماعي على أساس من قيم أيديولوجية مقبولة كالحرية والعقلانية والعدالة، وكلها

مفاهيم نشأت ملزمة لقيام الدولة الليبرالية التي عرفها الغرب في فترة قيام الرأسمالية التجارية، أي خلال القرن السادس عشر الذي تم فيه استغلال المعادن النقيضة المتداقة من مناجم المكسيك وبيرو وبداية المد الكولونيالي وتكون ما يشبه السوق العالمي، وفي فترة تطورها نحو الرأسمالية الصناعية؛ هذا بينما كان البحث التاريخي يتوجه قدیما نحو المصادر الدينية واللامهورية وتحقيق المصادر القديمة وينتج خاص اللاتينية واليونانية.

لقد كان أول مؤرخ فرنسي يعني بحياة الشعب في كفاحه اليومي ويعاداته وتقاليده وأحلامه وأوهامه بعيداً عن وظيفة المؤسسات الحكومية والقوالب الرسمية للسياسة العامة هو المؤرخ الرومانسي «ميشيل» (michelet) خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وكان قد سبقه إلى ذلك ، خلال القرن السابع عشر، «لوجراند دوسي» (Legrand d' Aussy) الذي ألف أول دراسة رائدة عن «تاريخ الفداء» وعلتها أول دراسة انتربولوجية تاريخية في فرنسا .

ولذا كان لابد من الإشارة إلى دور المؤسسين والرواد لهذا المفهوم العريض «التاريخ الجديد» ، فلتذكر نور «توكفيل» و«ماركس» و«سومبارت» و«ميزنجا» وهنري بييرين»، هذا بجانب الفلسفه وعلماء الاجتماع من أمثال «هنري بيير» و«دور كايم» و«ماكس فيبر» و«مارسيل موسى» و«جان موفريه» و«بانوفسكي» و«بيير فرانكاستل» وأخيراً «فرناند بروديل» وتلاميذه «لوروا لأنورى» و«بيير شونو»، وأضف إليهم قطبيس الانتربولوجيا : «جورج لو ميزيل» رائد دراسة

الملامح الهندو- أوروبية وكلود لييفي - سترووس» مؤسس البنية في مجال العرابة ودراسة الأساطير الهندي - أمريكي.

ومن أهم المفاهيم التي بلورها «التاريخ الجديد» مفهوم «التاريخ المتعدد الجوانب»، الذي لا يعني بالربرط التعسفي بين الأحداث أو تفسيرها بواسطة أحكام قيمية ومثالية مسبقة بقدر ما يعالج موضوعاته بطريقة شمولية انطلاقاً من مبدأ «الظاهرة الاجتماعية الكلية» التي بلورها «مارسيل موس»؛ ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى دراسة «ناتان راشتيل» عن «رؤى المهنوزين»، وهي دراسة رائدة عن حركة أو ظاهرة «الملاافة» (acculturation)، ودراسة «توبوروف» عن «فتح أمريكا- مسألة الآخر»، التي ترجمتها إلى العربية بشير السباعي (سينا للنشر، ١٩٩٢) حيث يمزج كل منهما بين رؤية المؤرخ ورؤية الأنثربولوجي أو السيمولوجي وبين متظاهر الآنا (مبدأ التمركز الغربي) والآخر (رؤى الشعوب المقهورة)؛ وإلى دراسة «تاريخ الموت في الغرب» (ميشيل فوكيل) .

أضف إلى ذلك أن «التاريخ الجديد» يعني بدراسة قضايا ومشاكل تقوم على فكرة «الاختلاف» وليس «المشاكلة» أو التمايز الذي يطمس التباينات ويدبّب الفروق الدالة والمعبرة، وهذا ما نجد له بوجه خاص في دراسات الفلسفه والمهتمين بتغيير تاريخ الفكر وليس مجرد تدوين النظريات وعرضها بطريقة مباشرة وسطحبية، وأفضل مثال لهذا الاتجاه دراسة «ميشيل فوكو» عن «تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي» . كما يعني «التاريخ الجديد» بتحديد وبناء

المقولات التي يعالج في إطارها مادته التاريخية أو معطياته المتوفرة مثل تحديد أشكال من الزمان التاريخي والتحقيق كالحركة الطويلة (Trend) التي يتم على أساسها إدراك الاتجاه العام للأسعار أو تحديد البنية السكانية أو الاقتصادية أو التركيبات الطبقية والاجتماعية أو القوالب العقلية وأنماط التفكير والسلوك العامة؛ ويعني كذلك بقياس وتحديد ظاهرة «التحولات» (mutations) البالغة الأهمية في إحداث «القطيعة المعرفية»، أي التغير الكيفي الذي تحدث من خلاله الظفرات الاجتماعية أو الثورات العلمية مثل التحول من الثبات إلى التطور في علوم الحياة أو الانتقال من النيوتانية إلى النسبية عند «أينشتاين»، وتحديد أشكال أو أبعاد الزمن الأخرى في صورة حركة موسمية أو دورية يمكن ترجمتها إحصائياً مثل حركة الأسعار ونسبة الممارسات الدينية أو الشعائرية وحركة ارتفاعها وانخفاضها عبر التاريخ.

هذا بالإضافة إلى استخدام وسائل القياس الكمي أو الإحصائي خاصة إذا كانت المادة التاريخية تشمل بيانات عدديّة، وهو الأمر الذي أتاح للمؤرخين دراسة الظواهر السكانية من المنظور التاريخي وإعداد دراسات خاصة بالتاريخ الاقتصادي («هاملتون» و«لابرس») لا يكتفى فيها أصحابها بالوصف العشوائي أو السرد الجزئي وإنما يحنون بناء المعطيات (المستقاة من التعدادات السكانية أو قوائم الضريبة أو ثائق الجرد والمحضر المختلفة المتوفرة في أرشيفات الدولة أو الجيش أو المستشفيات وغير ذلك من المؤسسات كالشهر العقاري مثلاً) في صورة جداول ورسوم بيانية

وكذلك بتطبيق بعض النماذج التي يتوصل إلى صياغتها علماء الاقتصاد (نورة «جوجلر» الزراعية مثلاً)؛ وعلى هذا النحو يتم الربط بين مختلف فروع العلوم الاجتماعية والإنسانية بصورة بناءة ومشمرة. وليست هذه التصورات قاصرة على التاريخ الاجتماعي والاقتصادي أو السكاني إذ هناك أعمال بالفترة الامامية تبتكر موضوعها ابتكاراً مثل دراسة «*تاریخ الكتاب*» لليوغسلافى «الكسندر ستيفنفيتش» وكتاب «*الجنور الثقافية للثورة الفرنسية*» (مورتيه ثم روجييه شاريبيه) والدراسات الخامسة بنشأة المظاهر والخيال الوسيطى المؤرخ «*جان لو جوف*» (J. le Goff).

وليس من شك في أن أهمية هذه الاتجاهات والمناهج التاريخية التي ترتبط بها يقر في عدم اعتمادها على الأمر المأهولة والقنوات المعدة مسبقاً التي تفرضها الأغراض الأيديولوجية أو الأهداف المقبولة سلفاً، كما أن أهميتها تعتمد على إبراز الرؤى المعايرة وليس المطابقة لعواطفنا وأمانينا الاشعورية والتعريضية . ذلك أن المعرفة التاريخية والحضارية ليست في مجرد تأكيد تصوراتنا أو تحسينها للأخرين وإنما في تجديدها، بل وتحفييرها، وإلا لن يكون هناك تجديد، أو بعبارة أدق «*انتاج معرفي*» فالدراسة التاريخية والحضارية لم تعد صياغة «حقائق» موجودة في طيات التاريخ وإنما في كشف وإنتاج هذه الحقائق عن طريق بناء المناهج والمداخل وتعديل الرؤى الجديدة والمتغيرة وفقاً لاهتمامات العصر واستثماراً لكل ضروب المعرفة المتاحة من غير خوف أو حواجز دفاع مصطنعة.

المنهج الرياضي في العلوم الاجتماعية

د. ناجي بدر (*)

(*) قسم الاجتماع بآداب دمنهور، جامعة الإسكندرية.

مقدمة -

الرياضيات لغة العلم، وهي إحدى اللغات التي يملكها البشر، ولكن ربما كانت اللغة الوحيدة التي لا تتأثر بأى تحيزات تتبع من ضمنها Contant الذى تستخدم فيه، وهذا ما جعلها لغة عالمية ومعنى ذلك أنه لأجال التفسيرات والتأويلات التي قد تنطوى على تحيزات الباحث وانتظاماته المختلفة. وإذا كانت الرياضة هي علم دراسة البناءات Structures - بغض النظر عن المحتوى - فإنه من الممكن - عن طريق استخدامها - الربط بين حقائق علمية ذات محتويات طبيعية مختلفة ولكن لها نفس البناء المنطقي. وبالتالي فالرياضيات مناسبة تماماً كلفة العلوم كما وصفها «جاليليو».

وليس الاهتمام بالرياضيات مسألة حديثة أو معاصرة فقد شغلت دائماً فكر العلماء والباحثين وقد أوضح «أوجست كونت» August cont فى كتابه دروس فى الفلسفة الوضعية philosophie postitive فاعلية فى العقل الإنساني التى يستطيع بها أن يمحض قوانين الطبيعة الإنسانية ، وقد اعتبر الرياضة القاعدة الأساسية التى ترتكز عليها كل العلوم الأخرى وتبني عليها كل إنجازاتها و تسترشد بمبادئها وقواعدها فى فهم وتحليل الظواهر والحقائق التى تهتم بدراسةها هذه العلوم وقد رتب بعد ذلك مجموعة العلوم من منطلق البساطة والتعقيد وانتهى إلى أن علم الاجتماع هو أكثر العلوم تعقيداً وهو يرى أن معظم العلوم تعتمد على العلوم التى سبقتها فى

الترتيب الذي أورده في تصنیفه للعلوم، وعلى ذلك فهو يرى ان الرياضة هي أبسط العلوم على وجه العموم وسر بساطتها أنها لا تعتمد على غيرها من العلوم ولا يحتاج الإنسان أن يستعين بأي علم آخر على فهمها، وفي نفس الوقت فإن العلوم الأخرى تعتمد على الرياضيات وتستعين بها^(١).

ولقد أثارت القضايا المنهجية المتعلقة بالاعتماد على الاتجاه الكيفي والاتجاه الكمي في الدراسة والتحليل في العلوم الاجتماعية، كثيرا من الجدل والنقاش بين المتخصصين والباحثين في العلوم الاجتماعية وظهر في تراث العلوم الاجتماعية المختلفة إسهامات ومحاولات من جانب بعض العلماء المهتمين بالتراث المنهجية، يمكن تلخيصها في مجموعتين :

الأولى: تؤيد الاعتماد على أحد الاتجاهين على حساب الآخر، في محاولة لإبرازه والتاكيد على أهميته وجدواه .

الثانية : وترى أنه لامجال للتفرقة بين الاتجاهين أو الاعتماد على واحد منهما دون الآخر، واعتبروا أن التفرقة بينهما نوعا من الثانية المصطنعة التي لا أساس منهجي لها .

ويعتمد أنصار الاتجاه الكيفي في العلوم الاجتماعية على قضية هامة مفادها : أن معظم مشكلات البحث والدراسة في العلوم الاجتماعية تعد ذات طبيعة كيفية، بالإضافة إلى صعوبة استخدام

(١) نادر فرجانى : استخدام الأساليب الرياضية والإحصائية في العلوم الإنسانية (مجلة عالم اللذك، المجلد الرابع، العدد الرابع ، الكويت ، ١٩٧٤) ص ١١ .

الرياضيات أو إجراء التطبيقات الرياضية، ويرجع ذلك إلى اختلاف مفهوم النظرية وصعوبة تعريف المتغيرات الأساسية وقياسها في العلوم الاجتماعية عنها في العلوم الطبيعية .

أم أنصار الاتجاه الكمي في العلوم الاجتماعية، فقد انطلق تأييدهم لهذا الاتجاه من خلال نظراتهم للنتائج المذهلة التي توصلت إليها العلوم الطبيعية عن طريق استخدامها للأساليب الرياضية والاحصائية، تلك النتائج التي تميزت بالدقة وال موضوعية.

وبناء على ذلك رأوا أن محاولة محاكاة هذه العلوم في مناهجها قد تساعدهم على الارتقاء بالعلوم الاجتماعية ووضعها في مصاف تلك العلوم، والابتعاد بها عن المعالجات الفلسفية التي سيطرت على العلوم الاجتماعية زمنا طويلا⁽²⁾ .

إلا أن بعض علماء العلوم الاجتماعية قد حاول الجمع أو التوفيق بين كل من الاتجاهين ، وجاءت محاولاتهم من منطلق أن - علما بأن طبيعة مشكلات الدراسة في العلوم الاجتماعية تعتبر ذات صفة كيفية- المعطيات أو البيانات التي يسفر عنها أي بحث في العلوم الاجتماعية تنقسم إلى : بيانات كيفية ليصلح معها في الدراسة والتحليل سوى الاتجاه الكيفي، وأخرى كمية لا يجدى معها سوى أساليب وطرق الاتجاه الكمي. هذا بالإضافة إلى إمكانية تحويل البيانات الكيفية إلى بيانات كمية يمكن قياسها من خلال إحلال

(2) J.Kenney (et.al); Introduction to finit Mathematics (N.J.: Prentice Hall, 1965). P.54.

وحدات كمية بدلا منها، وعلى ذلك يمكن معالجتها كميا، مع ضرورة الوضع في الاعتبار ردها مرة ثانية إلى أصلها الكيفي أو بمعنى أدق مضمونها الاجتماعي، مع وضع التحفظات اللازمة حتى لا يضيع هذا المضمون خلال الأرقام والمعادلات والصيغ الكمية .

إن العلماء يهدفون أساسا من خلال دراساتهم وبحثهم المختلفة تدعيم أو تقويض النظريات القائمة، أو تكوين أو إبراز نظريات جديدة تساعدهم على فهم المجتمع وما يتضمنه من ظهر . وإن كانت النظرية من حيث صياغتها بصفة عامة تتطوّر على عدد من المفاهيم والمصطلحات ، فمن المعروف أن هناك مشكلة تتعلق بعدم اتفاق العلماء حول هذه المفاهيم والمصطلحات، وهذا ما جعلهم يستشعرون الحاجة إلى وجود لغة واحدة يمكن الاتفاق عليها . ومن هذا المنطلق حاول بعضهم معتمدًا على الأساليب الرياضية المختلفة صياغة نظريات بهدف التخلص من نواحي التبس والغموض وعدم الاتفاق الذي يكشف بعض النظريات في العلوم الاجتماعية .

★ الاتجاه الكيفي والاتجاه الكمي:

إن الغالبية العظمى من مشكلات البحث والتعميمات في العلوم الاجتماعية ذات طابع كيفي، ومن أمثلة التعميمات الكيفية أنه إذا زادت الظاهرة (أ) زادت الظاهرة (ب) وهذه التعميمات تستند إلى الخبرة الشائعة أو التجربة المألوفة كما أنها تستند إلى البحث والبيانات وكلها تشكل الأسس الامبيريقية المألوفة للنظرية في العلوم الاجتماعية إلا أن هذه البيانات قد تكون ذات طابع عددي حتى وإن

كان قد تم التوصل إليها من بيانات كيفية⁽³⁾.

ولذا طرحتنا ذلك جانباً وقمنا بمحاولة تصميم نماذج للبحث وأعطينا أولوية للجوانب الرياضية على الجوانب الاجتماعية، فإن كل العمليات التي سوف تسوق أي نوع من أنواع القياس ستظل مبهمة ولا يمكن السيطرة عليها، بينما إذا استخدمنا إلى الشواهد والبيانات الكيفيةـ كما يحدث دائمـ فإننا بذلك تكون قد أضفينا عليها قدرًا من الدقة التي تفتقر إليها في الواقع. وهكذا تبدو المسوغية التي تكتفى هذه العملية وكيف أنها تؤدي إلى اعتقاد خاطئ في التحكم والضبط الرياضي. ومثل هذه العملية في ذاتها تعتبر مصدراً للتهميش والسخرية طالما أنها تفاصـ ولو ضئـ إلى نوع من التكهن العلميـ.

وبذلك يمكننا أن نتصور المشكلة لو وضعنا في العسبان قواعد الارتباط، أي أنه ينبغي أن تكون هذه القواعد عبارة عن مجموعات معروفة تمثل بعض الأهداف أو العناصر، التي يشار إليها في العلوم الاجتماعية على أنها المجموعات الطبيعية التي ترتبط بالبيئة المحيطة أو بإطار الاستدلال مع بعض الميزات أو الصفات المختارـة التي لا يمكن الوقوف إزاءها موقفاً محايـداً.

وقد قدم كارلينجر Kerlinger شرحاً لهذه المسألة جاء فيه :
أن البيئة المحيطة أو إطار الاستدلال يرتبط أشد الارتباط مع "U"

(3) James S.Coleman, Introduction to Mathematical Sociology
(Glencoe I 11: The Free Press, 1964) P.26.

إذا اتفقنا على أن "U" يشير إلى المعالجة بطريقة كافية أو موضوعية، وهي طريقة يجب أن تتضمن أي موضوعات نستطيع أن تتحدث عنها، ولذلك فنحن إذا انتقلا إلى مستوى آخر من مستويات الطريقة الكلية لمعالجة الموضوع فسنجد أن المستوى الجديد لن يكون متضمناً لشكل الموضوعات فعلى سبيل المثال: عند الحديث عن الأفراد فإنه لا يجب أن تتحدث عن الطيور مثلاً، لأن هذه السلوك يعتبر خروجاً على مستويات الطريقة الموضوعية للمعالجة، وهذه المشكلة المتمثلة في إطار الاستدلال أو في المعالجة الكلية للموضوع يحفز فكرنا في الحديث عن الأهداف وال العلاقات التي تتضمنها دون أي شيء آخر⁽¹⁾.

* التأثير الأيديولوجي لاختيار بين الاتجاه الكيفي والكمي :

تعكس عملية اختيار الباحث لأى من الاتجاهين الكيفي أو الكمي في التحليل الكثير من اهتمامات الباحث، وعموماً يمكن القول إن التحليل الكمي يعتبر ذا صفات خاصة في العلوم الاجتماعية بالولايات المتحدة الأمريكية إذا ما قورن بغيره في البلدان الأخرى، حيث إنه يعتمد على الملاحظة والتجربة وأيديولوجية التقديم، كذلك يرتبط أسلوب التحليل الكيفي بال موقف أو المكانة السياسية. لذلك فإن اختيار الباحث لأسلوب البحث يرتبط بال موقف السياسي والنظام الاجتماعي والحالة الراهنة للدولة، بالإضافة إلى ذلك فإن اختيار

(1) Fred N. Kerlinger: Foundations . of Behavioral Research Educational and Psychological (New York: idolt 1964). p .76 .

الباحث بين الاتجاه الكيفي أو الكمي ينجم عن سلسلة عوامل لعل أهم ما يرضع منها في الاعتبار هو العلاقات الداخلية بين المتغيرات وفي نفس الوقت النظر إليها على أنها عوامل منفصلة من الناحية التحليلية فقط، بينما تترابط جميعها في إطار الموقف السياسي والأيديولوجي للباحث نفسه والبيئة التي يعيش في نطاقها وما إذا كان يتلقى في الرأي مع النظام الاجتماعي الذي يعيش في ظله .

وقد بروز استخدام الاتجاه الكيفي من خلال عملية (المدرس البديهي) وتفهم الدور الذي قام به بعض العلماء في الصراع الأيديولوجي لفترة ما قبل الحرب العالمية الثانية، وربما ظهر غيرهم من العلماء مرة أخرى في تاريخ المجتمعات الإنسانية، لكن دون توفر عناصر الهيمنة الذي كان يتمتع به العلماء السابقون وهذا يوضح لنا مدى الارتباط الوثيق بين أسلوب البحث والموقف السياسي⁽¹⁾ .

سمات الأسلوب الثاني (الكمي)	سمات الأسلوب الأول (الكيفي)
١- التركيز على الطابع الكمي للمتغيرات التي تكون مشكلة البحث .	١- التركيز على الطابع الكيفي للمتغيرات التي تكون مشكلة البحث وذلك بمقارنتها بمجموعة أخرى من الظواهر تفترض على نحو قيمي .
٢- الاهتمام ومحاولة تحليل عناصر مشكلة البحث .	٢- تركيب عناصر موضوع البحث .
٣- الاهتمام بالبعد المكاني وال زمني للعنصر التي توجد داخل	٣- الاهتمام بالبعد الزمني لعناصر موضوع البحث .

(1) Louis Athusser . Pour Marx (Paris: Maspere 1065) p. 222 .

- مجموعة الظواهر موضوع البحث
 (يعنى وضع كل عنصر من عناصر المكونة للمجموعة في إطار المكانى والزمانى) .
- ٤- تجسيد العلاقات الاجتماعية (أى تحريرها إلى مسالك ماربة)، وبالبحث عن القوانين الطبيعية التي تحكم مشكلة البحث .
 - ٥- إغفال تاريخ موضوع البحث بما يعنى إمكانية قلب وعكس التسلسل التاريخي لعناصر موضوع البحث .
 - ٦- تجنب إصدار أحكام قيمة .
 - ٧- التركيز على مجموعة الظواهر التي تشكل موضوع البحث .
 - ٨- الاعتماد على المنهج التجريبى كطريقة نموذجية للتحقق من صدق المعرفة .
 - ٩- تخطيط مصادر مجموعة ظواهر البحث ومحاولة وضع سياسة للتقليل من التناقضات الواقعية بينهما (التحكم والضبط التجريبى) .
 - ١٠- التأكيد على منهجية الواقع التي يمكن جمعها .
 - ١١- تميز موضوع البحث بالدراهم والاستمرارية^(١) .

- ٤- إنسانية العلاقات الاجتماعية والبحث عن القوانين الاجتماعية التي تحدد التحول من مجموعة الظواهر إلى مجموعة أخرى .
- ٥- الاهتمام بتاريخ الظواهر أو عناصر البحث بما يعنى عدم إمكانية عكس التسلسل والتغير التاريخي لعناصر موضوع البحث .
- ٦- إمكانية إصدار أحكام قيمة .
- ٧- التركيز على القوى التي تحدد عناصر موضوع البحث .
- ٨- المعاشرة والتحقق والأ empirique كطريقة نموذجية للتحقق من صدق المعرفة .
- ٩- الأخذ بسياسة تعزيز التناقضات في مجموعة الظواهر موضوع البحث .
- ١٠- التأكيد على منهجية التغيير وأحداث الثورات .
- ١١- تميز موضوع البحث بالتغيير .

(1) Pablo Gonzalez Casanova, Translated by : Susan Bethe Kapilian, Geozanne Weller: The Fallacy of Social Science Research, A Critical Examination New Qualitative Model, Foreword by Adam Schoff. pergamon press (1981). pp.9-10.

والخلاصة أن الاتجاه الكمي في العلوم الاجتماعية يعتمد على إمكانية الفهم والتحكم في التغيرات داخل المجتمعات الرأسمالية والاشتراكية، الدليل على ذلك أنه عندما يبدأ الباحث العمل من خلال مجتمع رأسالي في محاولة من جانبه لفهم هذا النظام وفهم متغيراته دون اللجوء لمحاولة تغييره، نجد أنه يتوجه نحو التحليل الكمي، منه في ذلك مثل العامل الفني الذي يعمل داخل نطاق المجتمع الاشتراكي، فهو يحاول أن يتكيف مع البيئة المحيطة به ليحصل على الألفة التي تمكنه من إدراك متغيرات النظام، إن الانتقال من نظام إلى آخر يفترض الانتقال من قاعدة إلى أخرى، لذا فإن التغيرات الكمية في إحدى هذه القواعد لا بد أن تعتمد على مدى التغير في القاعدة الأخرى والتغيرات الكمية لا بد أن توجد في القاعدة الأخرى التي يتم تغيير بعض بنودها، والتي قد تتضمن مبحث القيم (الأخلاق الدين - الجمال) داخل القاعدة الجديدة⁽¹⁾.

★ دعائم الاتجاه الكمي:

يعتبر الاحصاء من أهم دعائم الاتجاه الكمي في العلوم الاجتماعية فالاحصاء هو العلم الذي يبحث في أساليب جميع البيانات ووسائل تحليل البيانات بهدف الوصول إلى المعرفة المبنية على أسس رقمية عن المجتمعات محل الدراسة. ويرسم الاحصاء الرياضي دعائمه على أسس بسيطة يمكن للعقل البشري أن يقبلها دون جدال ويعتبر الأسلوب الاحصائي خط الامان في أي دراسة

(1) Ibid, 36 .

لواجهة مشكلة معينة حالية أو متوقعة من أجل حلها^(١) .
 وعلى ذلك فإن علم الاحصاء ليس علما مستقلا بذاته وإنما يعتبر
 الاحصاء أداة تخدم العلوم الأخرى في البحث والاستقصاء والتعبير
 عن النتائج بلغة مبسطة مختصرة ومركزة تتميز بالدقة وسهولة
 العرض، بحيث يكون من الميسور نقلها للغير في سرعة ووضوح
 وتحديد، كالاتجاه إلى الأرقام والتعبير الكمي والاستعانة بالرموز
 والرسوم البيانية والجدارى والمعادلات الرياضية. فالاحصاء إذن لنة
 أخرى أو طريقة من طرق الاختزال وتسهيل التسجيل وعرض ما
 وصلت إليه العلوم والتجارب من نتائج. وساعد وضيع النتائج في
 صورة إحصائية على متابعة البحث فيها إذ إن لغة الاحصاء تساعده
 على حصر مجال التفكير، وتسهيل عمل المقارنات وتجعل من الميسور
 إخضاع هذه النتائج لخطوات أخرى من التحليل الاحصائي الذي
 يؤدي إلى إبراز العوامل الرئيسية فيها، وتميز التحليل الاحصائي
 بصفة التنظيم والترتيب التي تجعل من الميسور دائما الرجوع إلى
 التفاصيل والبيانات الأولية التي اتخذت منها الرموز النهائية والتي
 تكون غالبا ذات معانٍ جزئية مبنية على تجمع سلسلة من الخطوات
 الاحصائية^(٢) ..

☆ الاحصاء في العلوم الاجتماعية :

ليس العلم مجموعة من الحقائق والنظريات فحسب، بل هو في

(١) مدنى نسوقى مصطفى : مبانى في علم الاحصاء (دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٨) من ٩.

(٢) محمد خليفة برकات: الاختبارات والمقياس العقلية (دار مصر للطباعة، القاهرة ، ١٩٥٤) من ١٠-١١.

الواقع نظام محكم الحلقات، مترابط الوحدات يحدد علاقة الفرد بمح兜يات العالم الذي يعيش فيه، ويفسر الظواهر الطبيعية التي تمسه من قريب أو بعيد، وكلما زاد التقدم العلمي كلما ساعد هذا بدوره على اكتشاف حقائق أخرى جديدة. فالتقدم الفكري هدف أساسى من أهداف البحث العلمي، كما أنه نتيجة حتمية من نتائجه ، إلا أنه لا يحدث دائماً أن يهدف الباحث إلى اكتشاف حقائق جديدة بل قد يرمى في كثير من الأحيان إلى تنظيم الحقائق والنظريات التي سبق اكتشافها ، مما يضطره إلى فحص الصفات والميزات للحقائق والبيانات العلمية المختلفة وتوسيع العلاقات القائمة بينها. والباحث في كل هذا يستخدم الوسائل والأسس الاحصائية التي تعدد بالوصف المرضوعي الدقيق. وتوسيع له العلاقة التي تتطلبها بحوثه توسيعاً بعيداً عن العوامل الشخصية. فالباحث الذي يعتمد على مجرد الملاحظة الشخصية غالباً ما تقويه هذه الملاحظة - دون قصد- إلى نتائج لاتنطبق على الواقع العلمية انتطياقاً تماماً. ومن هنا كان الاحصاء هو عصا الباحث التي تقويه إلى الأسلوب الصحيح والنتائج السليمة. فالباحث يحتاج إلى تصميم بحثه على أساس يمكنه من أن يستخلص النتائج التي يهدف إليها وتحقيق الفروض التي يبدأ بها. وأن يستبعد بقدر استطاعته جميع العوامل غير المرغوب فيها والتي قد تؤثر في النتائج وفي سير البحث ثم في حساب المعاملات والنتائج الجزئية التي يحتاج إليها في الخطوات المتتابعة للبحث كالمتوسطات ومقاييس التشتت ومعاملات الارتباط

ومقاييس الدلالة وطريقة التفكير التي يلجأ إليها الأخصائيون عادة تتحمّس في افتراض أن الباحث قد كرر تجربته على أشخاص آخرين عدداً لا ينتهي - من المرات - في نفس الظروف التي أجرى فيها تجربته الأولى. فمن الطبيعي أنه سيحصل من هذه التجارب على فروق مختلفة بين متوسط درجات المجموعتين ونستطيع أن نتخيل أن هذا الفرق سيتبين في تلك التجارب العديدة حول قيمة ثابتة يمكن أن نطلق عليها الفرق الحقيقي ونستطيع أن نتخيل اتساع التجريبية اتساعاً كبيراً، فيصبح التطبيق لا على عينة بل على المجتمع الأصلي الذي اختبرت منه العينتان اللتان أجرى عليهما البحث الأول. المشكلة في هذا المثال تصيب مشكلة من مشاكل التفكير الاستقرائي الذي ينتقل من الجزئيات إلى الكليات، أي من نتائج تجربة صغيرة إلى نتائج متوقعة لتجربة أعم بدرجة لا يمكن تطبيقها عملياً.

★ المزايا والفوائد التي يجنيها الباحث من الطرق الإحصائية :

- ١- تساعد الباحث على إعطاء أوصاف على جانب كبير من الدقة العلمية ودقة الوصف تحتاج دائماً إلى اختبار مدى ثبات النتائج التي حصل عليها الباحث ف مجرد الوصول إلى النتائج دون التحقق من ثباتها لا يكفي عادة كأساس يعتمد عليه في تغيير المعايير وتحقيق الفروض .
- ٢- يساعد الأخصاء على تلخيص النتائج في شكل ملائم مفهوم

(١) السيد خيري : الأخصاء في البحوث النفسية والتربوية والاجتماعية (مطبعة دار التأليف، القاهرة ، ١٩٨٣) ص ٢١ .

لأن البيانات التي يجمعها الباحث لا تعطي صورة واضحة إلا إذا تم تلخيصها في معامل، أو رقم أو شكل توضيحي كالرسوم البيانية .

٣- يساعد الباحث على استخلاص النتائج العامة من النتائج الجزئية فمثل هذه النتائج لا يمكن استخلاصها إلا تبعاً لقواعد احصائية، كما يستطيع الباحث أن يحدد درجة احتمال صحة التعميم الذي يصل إليه .

٤- يمكن الباحث من التبثق بالنتائج التي يتحمل أن يحصل عليها في ظروف خاصة .

٥- في كثير من البحوث يهدف الباحث إلى تحديد أثر عامل خاص دون غيره من العوامل مما لا يتسعني تحقيقه عملياً وهذا يستطيع الباحث أن يلجمـا إلى الاحصاء الذي يعاونه على فصل العامل الخاص عن العوامل المحتملة وتحديد أثره على حدة كما يعينه الاحصاء على التخلص من أثر العوامل الأخرى التي لا يستطيع تفاديـها في بحثـه والتي تؤثر دائمـاً في نتائج كل بحثـ كـعوامل الصدفة واختيار العـينـات .

٦- وقبل ذلك فإن الاحصاء يهدى الباحث إلى تنظيم خطوات بحثـه وهو يحتاجـ إليها في مرحلة تصميمـ البحثـ^(١) .

الرياضيات والنظرية في العلوم الاجتماعية :

إذا كانت النظرية في جوهرـها نـسـقـ من القضايا المجردة، كلـ

(١) المرجع السابق، ٢٤.

قضية من هذه القضايا تصور الصيغة العلمية للعلاقة بين الحدود التي تتضمنها القضية، وكل من هذه الحدود يشير إلى نوع عام من المعطيات، أي يشير إلى العام كما هو متميز عن الخاص. ويتبع هذا أن جميع القضايا التي تتضمنها النظرية هي التعميمات في ذاتها أي أنها تعدد بعض الصفات المشتركة وبعض الانتظامات في الظاهرة التي تتناولها النظرية^(١).

وتشترك الرياضيات النظرية في بعض خصائصها ، فهي تتميز بالتجريد ويتحدد صيغ عامه للعلاقات بين الحدود المكونة للنسق الرياضي كما أن هذه الحدود بطبعتها عامه أكثر منها خاصة، إلا أن هناك سمة تتفرق بها الرياضيات وتزورها بخصائص تقتضيها النظرية، وهي أن الحدود المكونة لعناصر النسق الرياضي عبارة عن متغيرات، وبالتالي تعرف القضايا التي تتكون من هذه الحدود بأنها صيغ Formuals أو دوال افتراضية Propositional Functions وبالطبع هذه الصيغ أو الدوال ليس لها سند امبيريقي على الإطلاق، ولكن ظلماً تحل قيمها معينة محل المتغيرات المكونة للصيغة أو الدالة فإن القضية تجسد بحيث يمكن اختبارها امبيريقيا، ولذا كان هذا النوع من الدوال من أكثر أنواع القضايا التي يمكن صياغتها عن الظاهرة الاجتماعية إذ يجمع نسقها بين المرونة والذقة، بحيث يصبح من الممكن القول بأنه لا يدانبه أي نسق نظري آخر ،

(١) محمد عاطف غيث وأخرون، قاموس علم الاجتماع، الهيئة المصرية العامة للطباعة والنشر ، الإسكندرية ، ١٩٧٩ .

فيما سلطته يمكن أن نعبر عن العلاقات المعقدة والحقيقة بين الواقع والأفكار مع تجنب الرموز اللغوية تماماً^(١).

والحقيقة أن المعرفة التجريبية التي تجمع بين كل من الرياضيات والنظرية وكذلك التماسك المنطقي لعناصر كل منها قد أوجد رابطة ضرورية بينهما بحيث اعتبرت الرياضة أقرب لغة للنظرية سواء في مجال العلوم الطبيعية، أو العلوم الاجتماعية، وقد أبرز ناجل Nagel هذه الرابطة بتاكيده على أنه إذا كان للنظرية في العلوم الاجتماعية أن تتخطى الاختلافات الثقافية فإنها يجب أن تكون على درجة عالية من التجريد وأن تبتعد مفهوماتها ظاهرياً عن السمات المألوفة والواضحة في أي مجتمع وأن تتضمن نتائجها استخداماً لأساليب الحساب الرمزي^(٢).

محاولات لمياغة نظريات تعتمد على الرياضيات:
حاول فيرى Firey تصنيف تلك المحاولات إلى عدة مجموعات هي:
أ - التصنيفات classifications
ب - المعادلات الامبريقية Emperical Equations
ج - النماذج المنطقية الرمزية Logistic Models

١- نادر صالح، الرياضيات والنظرية السوسيولوجية ، عالم الفكر، المجلد الرابع، العدد الرابع، الكويت ، ١٩٧٤ ، ص ٢٥.

2) Sorokin, P. "Fads and Foibles in Modern Sociology" Henry Regery company, Chicago 1955, p.174.

د- النماذج التصادفية Stochastic Models.

١- ستويارات دود ونظرية الموقف :

يعد ستويارات دود Dodd أحد ممثلي الوضعيية الجديدة New Postivism ولم يعد هذا المصطلح يستخدم الآن إلا في القليل النادر، حيث يشاع بدلاً منه مصطلح علم الاجتماع الرياضي وقد أجرى دود عدة بحوث في الشرق الأوسط حيث طور المبادئ، والأسس التي ارتكز عليها في مقاله الهام أبعاد المجتمع Dimensions of Society ١٩٤٢ والهدف من الأبعاد كما يقول «دود» هو إقامة نظرية كمية للمجتمع أطلق عليها «نظرية قـ - S-theory أو نظرية الموقف»، حيث يشير الرمز (S) إلى الموقف Situation وهو يذهب إلى أنه من الممكن تحليل المواقف وتصنيفيها إلى أربع فئات من المكونات هي :

الزمان Time والمكان Space وهم فئتان شائعتان في كل العلوم، والسكان وهم يمثلون فئة مشتركة بين كل الظواهر الاجتماعية وأخيراً فئة خصائص السكان وبيئاتهم - ويقول إن هذا التصنيف شامل، لأنه يستطيع أن يستوعب أي شيء آخر ولكن يحدد دود هذه المكونات الأربع الأساسية ويرمز إليها بالرموز التالية : ت (الزمان) ، ل (المكان) ، ب (السكان) ، و (القشر) والمفترض يحكم طبيعته يستطيع أن يشير إلى أي شيء آخر ، مثال ذلك : الفاسفة

البوزية وضوابط المدينة ، والرخصة الإنسانية^(١).

أما الخطوة الثانية في نظرية فهري التعبير عن كل موقف اجتماعي بمعادلة كمية تتألف من أربعة رموز أساسية أو أربعة مكونات. فإذا حدث في موقف ملموس أن انتهى وجود مكون أساسى أو صعب قياسه، فمن الممكن أن يشار إليه حينئذ بـ (صفى)، بحيث تتبع بعد ذلك مبادئه الجبر المعروفة وبالتالي تمويل أي كمية أو مقدار إلى (١). وفي الحالات الأخرى نستخدم الأساس ٢.٢.١. وكذاك الأوصى -١- ٢- بحيث تبدو المعادلة على النحو التالي : $L = L_1 =$ مواقف لا تتضمن مكانا، $L_2 =$ مواقف تتضمن خطوطا، $L_3 =$ مواقف تتضمن منطقة، $L_4 =$ مواقف تتضمن حجما (بعد ثالث)، $T =$ لا تتضمن زمنا، $T_1 =$ تتضمن الدوام، $T_2 =$ تغير، $T_3 =$ السرعة، $B =$ لا مكان، $B_1 =$ جموع، $B_2 =$ جماعات، $E_1, E_2 =$ نوع من الأشياء ليكن جنبها، $E_3 =$ نسبة ذكاء الفرد، $E_4 =$ خصائص نوعيه، $E_5 =$ خصائص مرتبطة. وعلى هذا النحو صاغ نورد معادلاته الكمية، فمثلًا نجد يرمز للقوة الاجتماعية بالرمز $T_2 E_1 B$ ، لأنها تتضمن سلفاً المكونات التالية : سرعة، والمكان، وسكن، وخاصية مميزة لكل قوة معينة. وهو يؤكد على أن هذا النمط من الصياغة قادر على تمويل الخصائص الكيفية على صيغ كمية. وقد نظر إلى هذه الخصائص باعتبارها تشكل^(١). ويقول : إنه من الممكن أن

(١) تماشيف، نظرية علم الاجتماع ، طبيعتها وتطورها ، ترجمة محمود عودة وأخرين، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٢٠١.

نحو: ببساطة هذه المعادلات الكمية إلى عدد رقمي، وذلك باستخدام أربعة أرقام تحمل أساس المعادلة الكمية.

ولتبسيط هذه الفكرة من وجهة نظره خسرو مثلاً لذلك بأن استبدل - ٢ بـ ٨، ١ بـ ٩ . فإن المعادلة الكمية القوة الاجتماعية ستؤدي إلى ظهور العدد ٨٠١١، ويعتقد أن كل المواقف الاجتماعية التي يمكن أن ترمز إليها بنفس العدد، لابد وأن تشتهر في خصائص عامة^(١).

الخطوة الثالثة التي اتبعها «نود» في صياغة نظريته تتمثل في تصميم «مصفوفة ارتباطية» والمصفوفة كلمة رياضية تستخدمن للإشارة إلى ترتيب أرقام معينة في صفوف وأعمدة ويدعى «نود» إلى أن هذه الأداة (المصفوفة) هي أفضل وأكفاء وسيلة لوصف الجماعة الإنسانية ويراستها، ففي داخل كل خلية (يلاحظ أن الخلية تتشكل بتقطيع الصيف مع العمود) يمكن ملاحظة المدى الذي وصل إليه المؤشر (مثال ذلك الحالات التي نقيس فيها الاتجاهات أو السلبية نحو بعض الأفراد) ومن الممكن أن تستكمل المصفوفة على ثلاثة أو أربعة أو خمسة أبعاد وبذلك تتيح كل إمكانيات تحقيق عرض توضيحي في صورة تقليدية .

وعلى هذا يصوغ «نود» نظريته في المعادلة التالية :

$$S = (T, L, P, Ipp, IR)$$

١- المرجع السابق، ص ٢٠٦ .

بــ المعادلات الامبيريقية :

تعبر المعادلات الامبيريقية مدخلا دراسيا يستعين بالرياضيات ويتعمّز عن غيره بامكانية البرهنة على صحتها وخطئها وجعل المعادلة التي صاغها كل من Show McKay من دراستهما للعمر إلى الإجرام مثلا لهذا النوع من المعادلات، فقد تبيّن لهما من خلال هذه الدراسة التي أجرياها في مدينة شيكاغو، وجود علاقة امبيريقية بين معدل الجنوح في المي « ونسبة الأحداث الجانحين به.

وقد برهنا على صحة هذه العلاقة بحيث عبرا عنها بخط انحدار المربيات المصرفى، وقد أخذ الصيغة التالية : $s = 22.92 + 22.84 \cdot x$ ، حيث (s) هي معدل الجنوح في المي، و(x) هي نسبة الجانحين العائدين إلا أن التحقق من صحة هذا النوع من المعادلات على نطاق محدود حال دون الوصول إلى التعميمات أو القوانين التي تكون جوهر النظرية الاجتماعية .

ومع ذلك فإن البعض يأمل أن تكون هذه المعادلات هي البداية المؤصلة إلى القوانين العلمية الاجتماعية رغم أن إمكانيات ذلك تبدو - وحتى الآن - محدودة للغاية .

جــ نظرية المباراة Game Theory

النموذج المنطقى هو الشكل الثالث الذى تأخذ بعض النظريات الاجتماعية الرياضية، ويبنى النموذج من مجموعة قضايا تتصل كل قضية بالأخرى وفقا لقواعد محددة للاستدلال.

وهذا النموذج يبني من بعض المحدود البسيطة التي ترتبط كل

منها بالأخرى بوسطة صيغ بسيطة أو بدائيات تتميز بالاستقلال كل واحدة عن الأخرى، وغير متناقضة مع بعضها البعض، وكافية لاستخراج النظريات الرياضية المكونة للنموذج .

والنموذج المنطقي يبدأ من الموقف الذي يضم شخصين، إلى الموقف الذي يضم ثلاثة أشخاص وهكذا إلى الموقف الذي يضم «ن» من الأشخاص ويتربّى على الانتقال من موقف إلى آخر تعتقد الظواهر المتنوّعة المرتبطة بال موضوع الذي يتناوله النموذج، وفي الوقت ذاته تزداد صعوبة الإحاطة به، ويصبح من الواضح عما عدم كفاية الرموز اللغوية في تمثيل هذه الظواهر.

فضلاً عن ذلك فإن من النادر أن تتم عملية الاستبatement التي يرجّبها اشتقت النظريات البرهانية المكونة للنموذج عن طريق الاستدلال اللغوي، ومن هنا كان لابد من اللجوء إلى الرياضيات ورموزها لبناء نموذج منطقي^(١).

وتعد نظرية المباريات Games Theory من الأساليب ذات الكفاءة العالية التي تقدمها الرياضيات الحديثة لدراسة السلوك الإنساني وهي تتبع في اعتبارها الفضائل من الأساسية لفهم العقلانية من التصرف Rationality^(٢).

ـ نظرية الأشكال : Graph Theory :

قدم الدكتور نادر فرجانى فى مقال له بعنوان : استخدام

(١) نادر صالح، مرجع سابق، ص ٦٥ .

(٢) نادر فرجانى، مرجع سابق، ص ١٧ .

الأساليب الرياضية والاحصائية في العلوم الإنسانية مثال لتطبيق أحد فروع الرياضة الحديثة نسبياً وهي نظرية الأشكال في مجال نظرية التنظيم Organization Theory وتبحث نظرية التنظيم هذه في الطرق التي تتكون بها مجموعات من البشر في مجالات مختلفة وقد قدم مشكلة بسيطة في نظرية التنظيم، ثم ذكر بعض المبادئ الأساسية لنظرية الأشكال وطبقها على المشكلة محل الاختيار .

سنعتبر أن أي عضوين في بناء اجتماعي معين تربطهما علاقة واحدة وإن هذه العلاقة إما أن تكون مرضية أو غير مرضية، أو محايضة، العلاقة المرضية قد تعنى أن العضوين يحييان بعضهما أو يعتقدان آراء متماثلة أو يمكن أن يعملَا معاً عكس هذه الصفات يحدد العلاقة غير المرضية وإذا كانت العلاقة لا تتصف بأنها مرضية أو غير مرضية، سنسميها محايضة، والفرض هنا هو تحديد بعض المعايير التي يمكن إذا توفرت لبناء اجتماعي معين اعتباره متوازناً طبقاً لمفهوم معين .

ونظرية الأشكال تناسب تماماً الصياغة الدقيقة لمشاكل البناءات الاجتماعية والشكل Graph هو مجموعة من الأشياء نسميها نقطة Points ووصلات بين هذه النقط سميت خطوط Lines ونظرية الأشكال تدرس خصائص الأشكال التي لا تتغير للأشكال المتاظرة يعنى آخر خصائص الشكل ش التي تكون صحيحة لكل الأشكال المتاظرة معه ولا شك أن الأشكال ذات الإشارات تعد وسيلة ملائمة للصياغة الرياضية للعلاقات المرضية وغير المرضية في أي بناء

اجتماعي. فأعضاء البناء الاجتماعي يمكن تمثيلهم بنقط والعلاقات المرضية بخط بإشارة موجبة، وال العلاقات غير المرضية بخط بإشارة سالبة وإذا لم يوجد خط بين النقطتين تعتبر العلاقة محايضة^(١).

النموذج الرياضي Mathematical Model

يوصف النموذج الرياضي بأنه ذلك الذي تكون مادته ذات طبيعة رياضية وتعتمد عملية التحديد الرسمي لخواص أي نموذج على الدقة التي تتحدد بها نوعية مركباته المختلفة وتجمع معاً.

ويصدق هذا بصفة خاصة بالنسبة للنماذج الرياضية. وتحتفل النماذج الرياضية أساساً عن النماذج بصفة عامة في أنها تخضع المعالجة الماهرة بالأساليب الرياضية. وبذلك فإن التقنيات التي يحصل عليها من هذه النماذج تؤدي إلى براهين رياضية منطقية .

وتتفرق النماذج الرياضية بأنها الوحيدة التي تسمح بعميكة أوتوماتية النشاط العقلي و حتى الآن لم توفر فصيلة فعالة لتخفيض مقدرة الإنسان العقلية ولا يمكن الوصول إلى هذا بالاستخدام النماذج الرياضية ومعالجتها ببراعة بمساعدة الحاسوبات الالكترونية ويشكل الاستخدام الذي يتزايد باستمرار النماذج الرياضية في مختلف فروع المعرفة ما يعرف تواتراً بأنه «رياضة العلم».

١- بلاجوخت ستلوف : بعض مبادئ «صياغة النماذج الرياضية»، ترجمة ابراهيم البرلس (مجلة العلم والمجتمع، العدد ٤٦، مطبوعات مركز اليونسكو ١٩٨٢) ص ١٦ .

ويع أن مصطلح «نموذج رياضي» اكتسب ذيوعاً كبيراً في السنوات الأخيرة فإنه ليس اختراعاً حديثاً بائيّاً مقىاس، فاكتشافات الفيزياء في جوهرها نماذج رياضية ولو أنها توصف غالباً بأنها قوانين فيزيائية.

وبعد اكتشافات «كبلر» أن عبر «نيوتون» عن قانون الجاذبية الكونية بالمعادلة الرياضية التالية :

$$F = \frac{G m_1 m_2}{r^2}$$

حيث F = قوة الجذب بين أي جسمين في الكون، وهي تتناسب طردياً مع حاصل ضرب كتلتيهما (m_1, m_2) وعكسياً مع مربع المسافة بينهما (r) ويمثل هذا القانون في الحقيقة نموذجاً رياضياً نعملياً يمكن أن يطبق أسلوباً رياضياً نعملياً للوصول إلى نتائج بالغة الدقة وتفسيرات تتقبل بجوانب كثيرة من الحقيقة الموضوعية وخلال التاريخ قدّم اكتشاف الكوكب «نبتون» دليلاً بارزاً على صحة هذا النموذج واليوم يتبع هذا النموذج نفسه إجراءً حساب المسارات المقدمة للأقمار الصناعية وسفن الفضاء وأثبتت التنبؤات المبنية على نموذج «نيوتون» أنها دقيقة بدرجة غير عادية ومفيدة ومع ذلك يعتبر علماء الفيزياء الحديثين أن قانون الجاذبية الكونية ليس تام الصحة ويستخدمون قانون «أينشتين» للجاذبية.

ولذا كان تفضيل الحديث عن نماذج رياضية لظواهر فيزيائية على الحديث عن قوانين فيزيائية فإن هذا ليس بداعٍ لتفضيل المصطلحات

المستخدمة وأنه في وصف اكتشاف «نيوتن» بأنه نموذج رياضي فمن الطبيعي السماح بهامش من عدم التيقن يتعلق بدقة التنبؤ المستمد، ونسلم باحتمال وجود مجال لتحسين النموذج ومن ناحية أخرى فإنه إذا اعتبر قانون «نيوتن» حقيقة مطلقة فإن أي مشاهدة تتعارض معه تهز الثقة في صحته وتاريخ الفيزياء على «تجارب مؤلة أثارها إسقاط نظرية لصالح أخرى في حين أن لحظات المصدق هذه ليست في حقيقتها أكثر من تسلسل طبيعي لا مفر منه للأحداث يرتبط بالتدقيق المتصاعد للنماذج الرياضية المتعلقة بظاهرة طبيعية معينة.

واستخدام النماذج الرياضية التي تتطابق على نطاق واسع في مجالات أخرى من العلوم بالإضافة إلى الفيزياء – يشكل في الحقيقة واحدة من أكثر أدوات البحث شمولاً وقوة ، ويفيد بصفة خاصة لأن أقل تكلفة واستغرقاً في الوقت من أسلوب التجريب التقليدي وفي هذا الإطار فإن الدراسات ذات الطبيعة النوعية أو الكمية التي تطبق على نموذج رياضي الظاهرة موضوع الدرس وضع استناداً إلى افتراض معين تعتبر وسيلة سريعة وقليلة التكلفة لتحديد صحة مثل هذا الافتراض فإذا كانت نتائج هذه الدراسات لا تتفق بصورة مقنعة مع نتائج المشاهدة الفعلية للظاهرة فهذه إشارة موثوقة بها على أن الافتراض الرئيسي غير صحيح، ومن ناحية أخرى فإن الانفاق الجيد بين النتائج التي يقدمها النموذج ونتائج المشاهدة لا تتضمن بأي حال أن الافتراض سليم، بل إنها تقترح أن الافتراض مقبول ويطلب تحقيقاً أوسع بإسلوب التجربة وبعبارة أخرى فإن استخدام النماذج

لايحل محل التجربة الفعلية بل يقتصر على أن يدخلها في إطار المنطق .

والخلاصة أن النماذج الرياضية تختلف بصورة جوهرية عن النماذج بصفة عامة نظراً لأنها تخضع للمعالجة العميقه مستخدمة الأساليب الرياضية المختلفة لأن استخدام النماذج الرياضية يسهل أو ييسر عملية التبيّق وذلك من خلال براهين واستدلالات رياضية منطقية ولا يمكن أن تتجاهل الدور الأساسي الذي تلعبه الحاسوبات الآلية في إبراز الدور الذي يمكن أن يلعبه التموزج الرياضي في عملية التحليل^(١) .

ظهر من خلال ما عرضنا فيما سبق أن جانباً كبيراً من العلماء حاولوا صياغة نظريات في مجال العلوم الاجتماعية تعتمد أساساً على الرياضيات، إلا أنه يمكن القول أن دور الرياضيات بالنسبة للنظريات الاجتماعية يمكن تلخيصه في أنها قد تسهم في تخلص النظيرية من أي لبس أو غموض يكتنف المفهومات الأساسية التي تتطوى طبعها، وإن كان قد ظهر في التراث نظريات يغلب عليها الطابع الفلسفى وأخر يغلب عليه الطابع الامبيريقي، فإنه يمكن أن يكون للرياضيات دور في إعادة صياغة تلك النظريات .

ويمكن أن يتحقق استخدام الرياضيات في العلوم الاجتماعية مزيداً من الاتفاق بين العلماء حول محتوى النظريات السوسيولوجية وذلك حين يتم التعبير عن مضمون هذه النظريات ومكوناتها في

١- المرجع السابق ، من ٢٠.

صور كمية من خلال معادلات أو أرقام أو أية صيغة رياضية أو إحصائية ملائمة، حيث لا يمكن أن يختلفان من العلماء حول لغة الرقم . وإن كان الاعتماد على الأساليب الإحصائية في العلوم الاجتماعية قد ساعد على تحقيق مزيد من الموضوعية والحيادية بالنسبة لموضوعات البحث المختلفة ونتائجها ، فإن الباحث في العلوم الاجتماعية عليه أن ينتقى من بين الأساليب والطرق الإحصائية ما يلائم موضوع البحث وإجادته لاستخدام تلك الأساليب الإحصائية المختلفة .

إشكالية المنهج في الأنثروبولوجيا

د. مصطفى عمر^(*)

(*) قسم الأنثروبولوجيا بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية

مقدمة:

إن القاعدة الأساسية التي نحاول الاعتماد عليها في مناقشة طرائق البحث الأنثربولوجي وأساليبه تستند على أن المعرفة العلمية هي معرفة نظرية، وأن هدف مناهج العلم بصفة عامة هو مساعدتنا على الاختيار بين البديلان النظرية المتاحة. وينتتج عن ذلك بالطبع عدد من النتائج الهامة، لعل من أبرز هذه النتائج أن المعرفة الإنسانية بصفة عامة هي أكثر من مجرد مجموعة آراء وتحيزات خاصة بين طائفتين من الباحثين، هي أكثر أيضاً من مجرد جمع الواقع، كما أنها أكثر من متظاهر واحد لرؤية العالم الأنثربولوجي، فلا يمكن مثلاً أن يكون مجرد تراكم الواقع مديياً إلى المعرفة النظرية، فهناك فارق كبير بين «الواقع» وبين «المعرفة النظرية» على الرغم من أن الأولى تعد المطلب الأساسي للمعرفة والتقويم النظريات، فكثيراً ما يخدع دارس علم الإنسان فيحسب أن مهمة البحث الأنثربولوجي هي مجرد جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن منطقة بحثه، حقيقة أن البحث الأنثربولوجي يعطي للباحث السبيل والإجراءات التي يسترشد بها في جمع المعلومات والبيانات، لكن القضية الأساسية تكمن في سؤال مهم مفاده: ما هي المعنى المعيقي وراء هذه البيانات أو المعلومات فنحن نقرأ عدداً كبيراً من البحوث التي تجعلنا نقف على بعض الواقع والبيانات أو المعلومات، لكننا لانستطيع أن نتعرف على دلالة هذه المعلومات، إذن ، فإن مجرد تراكم هذه المعلومات، أو حتى تطور أساليب الحصول عليها، إن

يؤدي في حد ذاته إلى تطوير المعرفة الأنثropolوجية ولعل هذا هو التناقض بين الموقف النظري المنهجي، الذي يهتم بالتفسير والتغزيل والتحليل واكتشاف المعانى، وبين ما يعرف أصطلاحا باسم النزعة الإمبريقية Empiricism التي تتجه أساسا نحو تصوير مهمة علم الأنثropolوجيا بصفة خاصة، والعلوم الإنسانية بصفة عامة، على أنها البحث من أجل جمع الواقع أو البيانات الوصفية (الأنثوجرافية) Ethnographic Data. لذلك فإن الإمبريقية حين تتعرض للمعنى النظري ، فإنها تعرفها في حدود هذه النزعة أيضا على أنها تعميم يعتمد على الواقع المشاهدة يوضح العلاقة السببية المفترضة بينها .

ويعربما، فإن طرق جمع البيانات وتحليلها واستخلاص النتائج، تحتاج، دون شك، إلى تصورات نظرية دقيقة. فكل معالجة للمنهج تحتاج منا منذ البداية بأن نسلم بأن لكل منهج من مناهج البحث طبيعته الخاصة به، حيث أن كل منهج لا يلائم كل مشكلة ندرسها، وإنما طبيعة الموضوع الذي نتناوله بالبحث هي التي تحدد اختيارنا للمنهج الملائم. ومن هنا يمكننا القول بأننا لا نستطيع أن ندرس المناهج ذاتها من فراغ، وإنما لابد أن تستند هذه المناهج بيورها على أسس نظرية، ويجب تبريرها وفهمها في إطار هذه الأسس^(١).

(١) محمد علي محمد، ١٩٨٢، «علم الاجتماع والمنهج العلمي : دراسة في طرائق البحث وأساليبه»، دار المعرفة الجامعية ،الاسكندرية، ص ٢.

واعلنا نجد أن أهم نتائج التفرقة بين المناهج والنظريات، ذلك التمييز الحاسم الذي يبدو في هذه الأيام بين المنهج الكمي، المنهج الكيفي، باعتبارهما طريقتين منفصلتين، أكثر منها متكاملتان، إذن المناهج تعد باختصار شديد طرقاً لحل مشكلات محددة ذات مضمون خاص، وابل ذلك يجعلنا ننظر إلى المنهجين على أنهما يمثلان طرقاً مقتربة لحل مشكلات جمع البيانات، وإستخدام أدوات البحث ، الأمر الذي يجعلنا في النهاية نركز الاهتمام على مدى ملائمة هذين المنهجين للموضوع أو المشكلة موضوع البحث والدراسة. ويمكن أن نخلص من ذلك إلى نتيجتين أساسيتين الأولى: هي أن المناهج هي أدوات أو طرق تخدم أغراضًا ملموسة، وأن تباين الموضوعات أو المشكلات يقتضي تنوع أساليب حلها وتناولها، وهذه الغاية هي التي تحدد الحاجة إلى استخدام الحلول أو المناهج الكمية أو الكيفية، والثانية: أن المناهج لا تستخدم استخداماً مجرداً، ولكنها تستخدم باعتبارها أساساً لمشكلات مادية ملموسة، تحاول التوصل إلى حلول لها.

* ومن هنا سوف تتركز مناقشتنا لإشكالية المنهج في الأنثروبولوجيا في التعرف على المناهج وأدوات وطرق البحث المستخدمة في الدراسات الأنثروبولوجية ، وسوف تأتي المعالجة على النحو التالي :

أولاً مناهج الأنثروبولوجي:

تعتمد الدراسات الأنثروبولوجية على عدة مناهج وأساليب خاصة

في إجراء البحوث والدراسات الأنثropolوجية، لعل من أهمها : المنهج التارىخي - المنهج المقارن - المنهج البنائى الوظيفى - وسوف نتناولها بشيء من التفصيل .

١- المنهج التارىخي: يستخدم مصطلح التاريخ الاجتماعى Socical History للإشارة إلى دراسة التغير الذى يطرأ على المجتمع وشبكة العلاقات الاجتماعية الخامسة به، وتطور النظم الاجتماعية، والتحول فى المفاهيم والقيم الاجتماعية، وقد ارتبط هذا المصطلح بمصطلح التاريخ الاقتصادى Economic History وكلاهما كان نتيجة مباشرة واستجابة محددة لمصطلح التاريخ السياسي، ويرجع الفضل إلى العالم العربى المسلمين ابن خلدون، والعالم الإيطالى فيكو Vico فى وضع أصول التاريخ الاجتماعى، وقد أوضح فيكو ذلك فى مؤلفه الشهير «العلم الجديد» حيث استطاع أن يحمل الاهتمام فى التاريخ السياسى من العرب والمعاهدات إلى دراسة العادات والقوانين والأنظمة الاقتصادية والاجتماعية.

أما العالم العربى الشهير عبد الرحمن بن خلدون، فقد عرف التاريخ تعرضاً اجتماعياً فال تاريخ عنده يهدف إلى اعطائنا صورة واضحة عن الحياة الاجتماعية للإنسان، يعني حضارة الإنسان، ويهدف كذلك إلى معرفتنا بالظواهر الاجتماعية التى ترتبط بهذه الحضارة، وإلى معرفة الحياة البدائية والأخلاق ودور الأسرة والقبيلة وفارق الطبقات وجميع التغيرات التى تحدثها الطبيعة الخامسة بتلك الأشياء على أعضاء المجتمع، لذلك فإن علم (العمان البشري) يهتم

بدراسة التاريخ الاجتماعي على هذا النحو، بحيث يبحث في «مسائل الاجتماع الإنساني وال عمران البشري وما يلحق بها من عوارض».

* ومنهج التاريخ الاجتماعي عن ابن خلدون، أو الدراسة الاجتماعية للتاريخ، يعد منهجاً ديناميكياً بالضرورة يسير مع حركة التاريخ ويستوعب تطور الحياة الاجتماعية وانتقالها من حالة إلى أخرى. ذلك لأن أحوال الأمم وعوائدهم ونطحهم لا تدور على وترية واحدة و منهاج مستقر، وإنما هو اختلف على مر الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال، ويرجع هذا الاختلاف أو التباين في أحوال المجتمعات إلى عوامل عديدة اقتصادية وجغرافية وثقافية، فالمجتمع عند ابن خلدون شأنه شأن الفرد يمر بمراحل منذ ولادته حتى وفاته والمجتمعات تبدأ بمرحلة البداوة وتنتهي بمرحلة الأضياع، يتوسطها مرحلتين هما مرحلة الملك، ومرحلة الترف والنعيم أو الحضارة .

وفي الأنثروبولوجيا أو علم الإنسان يؤكد أصحاب المدرسة التاريخية على أهمية مفهوم التاريخ الثقافي Cultueral History، فيدعى ميلتند Maitland إلى أن : «الأنثروبولوجيا عليها أن تختار بين أن تكون تاريخية أو لا تصبح شيئاً على الإطلاق»، وأكد يول رادين P. Radin نفس العبارة كمقدمة في مؤلفه «منهج الأنثropolوجيا»، ويدعى ببركت سميث K.Birket sionith إلى أن «الحاضر لا يمكن فهمه إلا كنتاج للماضي»، لذلك فإن المشكلة الحيوية للأنثروبولوجيا - كما يفهمها - يتسع أن تكون

مشكلة تاريخية كذلك افتتح ساير E. Sapir مقاله الكلاسيكي الشهير عن «منظور الزمان» بقوله «إن الأنثربولوجيا الثقافية يجب أكثر فأكثر نحو الاعتراف بأنها علم تاريخي أساساً. فالمعلومات التي نحصل عليها يتغير فهمها سواه في ذاتها أو في صلتها ببعضها البعض إلا بوصفها نهاية تتبع معن لالأحداث التي تضرب بجنورها في الماضي السحيق، ومن الضروري أن يتحقق عندنا نوع من الفهم التاريخي للواقع بوصفها الهدف الأنثربولوجي الخاص بالباحث».

ومعهما ، فإن مصطلح التاريخ الثقافي يكتسب المعني ولداته في ضوء علم المناهج، وتنقسم المناهج في هذا الصدد إلى قسمين :
قسم أنثربولوجي ، قسم وصفي تاريخي ،

أما القسم الأنثربولوجي فهو يعطينا المدخل التي يمكن بواسطتها الكشف عن اعتبارات الزمان وصياغتها في تصورات ثقافية محددة، أما القسم التاريخي فهو الوسيلة التي بواسطتها ستتصبح تلك النتائج منظورات تاريخية صارقة ومفيدة بالنسبة للشعب التي تدرسها، والنتائج النهائية لذلك كله هو التاريخ الثقافي .

وهذا تحتل الثقافة في الأنثربولوجيا مكانة رئيسية ، ويعد البحث التاريخي للثقافة مطلباً هاماً وحيوياً بالنسبة لأنثربولوجيا الثقافية، ويعكس هذا الاهتمام دراسة نشأة الثقافة وتطورها وأصولها، وعملياً إعادة بناء تاريخ الثقافة، وتقوم هذه الدراسة على أساس دراسة توزيع الخصائص الثقافية وتحليلها ثم التتحقق من مدى إمكانية حدوث احتكاكات واتصالات بين الوحدات الثقافية، بل يمكن أن

تشكّف أيضًا التتابع الزمني الذي ظهرت فيه هذه الاحتكاكات والاتصالات.

أما علماء التأويل التاريخي للثقافة من أمثال كروبر Kroebel فإنه يرى أن التاريخ هو في جوهره محاولة لاعصاء وصف دقيق لموضوع الدراسة، وليس معالجة التتابعات الزمنية. ولهذا اعتقد أنه يمكننا الاعتماد على المنهج التاريخي في دراسة الأحداث والوقائع الحالية، وكذلك في دراسة الظواهر التي تحدث في زمن محدد، وهو ما يعرف باسم الدراسات المتزامنة Synchronic، هذا فضلاً عن دراسة الظواهر التي تحدث في أزمان متعددة Diachronic فكان ماهية التاريخ لا تحصر في عنصر الزمن كما أن الذي يميز الدراسة التاريخية هو الوصف التحليلي لآية مجموعة من الظواهر الثقافية في موقف معين بالذات. وعلى ذلك فإن الدراسة التاريخية تأخذ في اعتبارها عنصر الزمان إلى جانب عنصر المكان، وهذا هو المحك الأساسي الذي تقوم التفرقة بين العلم والتاريخ، ولاشك أن هذا الإصرار على أهمية المنهج التاريخي في دراسة الثقافة يوجد لدى كثير من علماء الأنثروبولوجيا الثقافية المحدثين^(٢).

وعلى ذلك ، فإن الاهتمام بتاريخ الإنسان يعتبر من بين المصادر الأساسية للدراسات الأنثropolوجية وقد تمثل ذلك في الدراسات

(٢) أحمد أبو زيد ١٩٧٤ «البناء الاجتماعي المفهومات» الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاستنكرية من ١٤٠.

المقارنة للمجتمعات والنظم الاجتماعية، وفي محاولة إعادة بناء تاريخ مجتمعات بعينها، فقد اعتمد كل من فولتير Voltaire وجونستاف كلم Gustav Klemm وسير هنرى مين Sir Henry Maine وماكلينان Gustav Bachofen McLennain وباخوفى G.F. McLennain وفونستيل L.H. Fustel De Coulanges ولويس مورجان E.B. Tylor Morgan اعتمدوا جميعا على المصادر التاريخية في إقامة علم اجتماع مقارن وفي الدراسات الأنثropolوجية الأمريكية المعاصرة سنجد أيضا اهتماما واضحا بالمصادر التاريخية فيما يعرف أصطلاحا باسم «الذاكرة الثقافية»، Memory Culture حيث تناول المدرسة التاريخية أن تعتمد على ذاكرة كبار السن من القبائل الهندية لكي تحصل على معلومات عن ثقافة هذه القبائل.

ويعتمد علماء الأنثropolوجيا والمهتمين بتاريخ الشعوب على ثلاثة مصادر ومتاهج رئيسية في تحقيق أهدافهم هي :

(١) الوثائق المكتوبة Written و لكن هناك صعوبات تواجه الاعتماد على هذه الوثائق، وخاصة في المجتمعات التي لا توجد عنها وثائق مدونة..

(٢) التراث الشفاهي Oral Traditions، حيث يغطي التراث الشفهي أنواعاً متعددة من الظواهر والأنظمة وال العلاقات الاجتماعية، ويمكن أن نعثر على التراث الشفاهي من دراسة هذه الظواهر الاجتماعية، حيث تكشف عن أهمية الاعتماد على هذا المصدر في

البحث التاريخية الأنثropolوجية .

(٢) البحث العقلى Field Work، حيث يمثل البحث العقلى القائم على الملاحظة بالمشاركة وجمع البيانات من الواقع مصدراً رئيسياً للمعلومات، وجزءاً رئيسياً من تدريب الباحث الأنثropolوجى، وذلك بهدف إبراز الوظائف المختلفة للأساق الاجتماعية والعلاقات المتباينة بينها إلى جانب تقويم وصف دقيق ومتكملاً للحياة الاجتماعية في مجتمع أو ثقافة معينة، وهذا لن يتم إلا من خلال إجراءات وأساليب البحث العقلى .

بـ- المنهج المقارن : يمكن القول بأن المنهج المقارن ينطبق على علم الأنثropolوجيا بكل فروعه ومجالات دراسته، حيث أن أي بحث أنثropolوجى ينطوى بالضرورة على مقارنات بين بعض التغيرات، ويكتسب المنهج المقارن دلالة خاصة في البحث الأنثropolوجى، حيث يقصد به عادة «دراسة توزيع الفوارق الاجتماعية في المجتمعات مختلفة، أو أنماط مختلفة من المجتمعات، وكذلك مقارنة النظم الاجتماعية الرئيسية من حيث استمرارها وتطورها والتغير الذي يطرأ عليها، أو حتى مقارنة المجتمعات بعضها ببعض» .

* أما عن مجالات البحث المقارنة في الأنثropolوجيا فهي تتلخص فيما يلى :

(١) دراسة أوجه الشبه والاختلاف بين الأنماط الرئيسية للسلوك الاجتماعي، ويشمل ذلك أيضاً دراسة السلوك السياسي للأفراد مثل التصويت في الانتخابات وغيرها، وكذلك دراسة السلوك الإجرامي

ومعدلات الجرائم في المجتمع وأنماطها في مجتمعات مختلفة .

(٢) دراسة نمو وتطور مختلف أنماط الشخصية، والاتجاهات السيكولوجية والاجتماعية في مجتمعات مختلفة وثقافات متعددة، وتمثل هذه الدراسات بحوث الثقافة والشخصية ودراسات الطابع القومي (٣) National character .

(٣) دراسة النماذج المختلفة من التنظيمات Organizations، وخصوصاً التنظيمات البيروقراطية مثل النقابات العمالية، والتنظيمات السياسية والصناعية والمهنية في مجتمعات مختلفة .

(٤) دراسة النظم الاجتماعية Social institutions، والتي بالضرورة تنقسم إلى أقسام فرعية، مثل تحليل المعايير النظامية العامة أو دراسة نظم الزواج والأسرة والقرابة، ثم دراسة الأساق الثقافية مثل المعتقدات الدينية، ودراسة العمليات التي تطرأ على المجتمع مثل التحضر والديموقراطية، ودراسة النظم الفرعية كالعادات والفولكلور، وهي دراسات ذات صلة وثيقة بالأساق الثقافية .

(٥) تحليل ومقارنة مجتمعات يأكلها . فعادة ما تتم المقارنة بين المجتمعات وفقاً للنوع الرئيسي المسائد للنظم الاجتماعية والثقافية الموجدة فيها .

(3) Nadel, 1958, "Foundations of Social Anthropology", Glencoe Press, P.228.

* أما عن المصوّبات المنهجية والنظرية ، فإن بناء الأنماط من أجل المقارنة يطرح عدداً من المشكلات المنهجية والنظرية يمكن تلخيصها على النحو التالي :

(١) مشكلة اختيار وحدة المقارنة التي على أساسها سوف تتحدد التغييرات الرئيسية في البحث .

(٢) مشكلة تحديد المؤشرات التي تقارن على أساسها بين التغييرات، حيث تختلف هذه المؤشرات تبعاً لاختلاف وحدة المقارنة.

(٣) مشكلة إمكانية المقارنة Comparability بالنسبة لكل وحدة من وحدات المقارنة .

(٤) مشكلة المعاينة Sampling، فالعينات المسغيرة نسبياً لوحدات المقارنة تشير تساولاً عن مدى إمكانية مبالغة مقارنات متعمقة تجريبية، والمشكلة المنهجية القائمة بالنسبة للعينات عموماً هي مدى تمثيل هذه العينات للمجتمع الأصلي، ففي الدراسات المقارنة التي تهدف إلى اختبار الفروض أو القضايا العامة، تكون درجة تمثيل الوحدات المقارنة للمجتمع الأصلي الذي تتطلب إليه مسألة بالغة الأهمية.

وهذه المصوّبات المنهجية تختلف عادة باختلاف المادة الازمة للتحليل المقارن^(٤)

ج - المنهج البنائي الوظيفي : بعد أن تطورت الانشروعولوجي في

(4) warwick D,& samuel osherson, "Comparative Research / methods" N.J prentice Hall. 1973. pp.43, 47.

الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، ظهرت إتجاهات جديدة تحاول أن تتجنب الصعوبات والمشكلات التي صاحبت استخدام وتطبيق المنهج المقارن تطبيقاً تقليدياً. وبذلك ظهر ما يعرف الآن في الدراسات الأنثropolوجية باسم «الاتجاه الوظيفي» الذي أخذ أصحابه يؤكدون على أنهم يدرسون الظواهر في إطارها وسياقها الكلي لهذا فهم يبتعدون عن المقارنات التي حاولت أن تعزل النظم الاجتماعية عن سياقها البنائي عزلاً تحكمياً. لكن الشيء الملاحظ في الوقت الحاضر هو أن العلماء الوظيفيين لا زالوا يعتبرون المقارنة عظيمة الفائدة بل ويصعب الاستغناء عنها في دراساتهم، لذلك فقد ذهب بعض العلماء إلى أن الاتجاه الوظيفي يهدف إلى التوصل إلى تعميمات تتعلق بالصلات المتباينة بين النظم في المجتمعات ذات الطبيعة الخاصة، والتي تصنف هذه المجتمعات حتى يمكن إدراك التشابه بينها، والمقارنة بينها في محاولة لاكتشاف بعض مظاهر التماثل بين هذه الوحدات البنائية، ومعنى ذلك أن الوظيفية سوق تستعين بالطريقة المقارنة واستعانت مباشرة لتحقيق أهدافها. ومن هنا اكتسب البحث المقارن أهمية خاصة وتدعيمًا قويًا بعد أن كتب نادل Nadel بعض الدراسات الأنثropolوجية، والتي أكد فيها على الحاجة الملحة والملحة للدراسة الواقع الاجتماعية في مواقف صناعية تمكناً من المقارنة بينها، وهو يؤكد أن علماء الأنثropolوجيا يتمسكون دائمًا بالسياق الأشمل، ويتسمكون من عزل العناصر عن سياقها دون أن تفقد معناها^(٥).

(5) Nadel, op.cit p.230.

* لذلك حاول المنهج البنائي الوظيفي المزاوجة بين المنهج المقارن، والاتجاه الوظيفي في الدراسات والبحوث الأنثropolوجية، حتى يتمكن من دراسة الظواهر الاجتماعية في سياقها الكلى من ناحية، والتعرف على الأنوار والوظائف التي ينديها كل نظام من النظم الاجتماعية من ناحية أخرى، لعرف طبيعة البناء الاجتماعي Social structure المجتمع ككل .

وحتى تتضح لنا صورة هذا المنهج نعطي مثالاً لتلك الدراسة الشهيرة والرائدة في مجال الدراسات الأنثropolوجية الحقلية، والتي قام بها مالينوفسكي Malinowski ليوضح التداخل بين الظواهر الاجتماعية وتقسيمها في إطار بنائي ووظيفي، تلك الدراسة التي ضمنها كتابه الذي يحمل عنوان : قبائل الأرجونوتس بالمحيط الهادئ Argonauts of the western Pacific ١٩٢٢، حيث استخدم المنهج البنائي الوظيفي في دراسة النشاط الاقتصادي الذي يمارسه سكان جزر التروبرياند والذي يعرف بنظام الكولا Kual System حيث يدخل سكان هذه الجزر مع سكان بعض الجزر المجاورة في نوع من التحالف أو الاتفاق يهدف إلى تبادل أشياء وسلع معينة تتألف من «عقود» طولية من الصدف الأحمر، وأساور» من الصدف الأبيض، ويتألف نسق التبادل في أن العقد تنتقل من مجتمع لأخر في إتجاه واحد لا يتغير حول محيط الدائرة تنظم الجزر، بينما تنتقل الأساور في الإتجاه المضاد، وهذه السلع لا تحمل قيمة عملية على الإطلاق بقدر ما لها قيمة شعائرية

وطقوسية، كما أنها تتصل اتصالاً وثيقاً بالمركز الذي يحتله الفرد في المجتمع^(٦).

ولقد كانت المدارس التاريخية المختلفة في الأنثروبولوجيا، وبخاصة في المدرسة الأمريكية، تنظر إلى الثقافة عموماً، باعتبارها مجموعة من العناصر غير المتصلة، بل والمتباينة في نشأتها، إلا أن البعض قد تصدى لهذا المفهوم، وبخاصة العلماء الوظيفيين وعلى رأسهم برونيسلو مالينوفسكي، حيث تتخذ الوظيفية عنده جانبين الأول: يذهب إلى أن كل ثقافة هي عبارة عن كيان كلي وظيفي متتكامل شبيهة بالكائن الحي، ولا يستطيع أن نفهم أي جزء من أي ثقافة إلا في ضوء علاقته بالكل. الجانب الثاني: هو محاولة تحديد الوظيفة النهائية للثقافات الإنسانية، وتفسير وجودها في المجتمعات، وهذا يبرز مفهوم الوظيفة الثقافية^(٧). ففي حين يوجه «رادكليف بروان» R.Brown اهتمامه إلى دراسة المجتمع لا إلى الثقافة، فيؤكد أن المجتمع يتكون من أجزاء متداخلة وظيفياً، وهو بذلك يسعى إلى تحقيق الأهداف التالية:

١- الوصف الدقيق للأداء الوظيفي للأبنية الاجتماعية الموجودة في المجتمعات الإنسانية، مؤكداً على دورها في الحفاظ على البناء

(6) Malinowski, B., "Argonauts of the western Pacific," London , Rouledge & kegan Paul, 1922. pp.22-24.

(7) محمد محمد الجوهري، ١٩٩٥ «الأنثروبولوجيا : أسس نظرية»، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ص ٢٩.

الاجتماعي.

٢- التصنيف المنهجي للظواهر الاجتماعية.

٣- صياغة القوانين العامة التي تحكم الظواهر الاجتماعية .

* لذلك فإن المنهج البنائي الوظيفي يهتم اهتماماً كبيراً ببناء الثقافة، والعلاقة القائمة بين أجزائها، كما يهتم أيضاً بدراسة المجتمع والثقافة وال العلاقات المتداخلة والمتشابكة بينهما، والتي تتتساند مع بعضها تسانداً وظيفياً .

ثانياً: طرق وأدوات البحث الأنثروبولوجي :

لقد أصبحت الأنثروبولوجيا علمًا يعتمد على مناهج متخصصة في البحث، إلى جانب أنها أصبحت فناً بمارساتها بعض الطرق والأدوات الفنية الدقيقة في إجراء بحوثها الحقلية . هذا فضلاً عن النظريات الخاصة به كعلم متخصص من العلوم الإنسانية . وقد أصبحت الفكرة القائلة « بأنه يتبعه على الأنثروبولوجي أن يبحث بنفسه عن البيانات التي تحتاج إليها دراساته بدلاً من الاعتماد على كتابات الرحالة » فكرة شائعة في أواخر القرن التاسع عشر، فقد قام فرادر بوس Boas بدراسات عن الأسكيمو بين عامي ١٨٨٣ - ١٨٨٤، ثم قام هارون Hadon في إنجلترا على رأس بعثة جامعة كمبرidge لدراسة منطقة مضائق توريس Torres straits في المحيط الهادئ بين عامي ١٨٩٨ - ١٨٩٩، وكانت هذه الرحلة عادةً مميزة في تشكيل الأنثروبولوجيا كعلم يحتاج إلى التخصص والتفرع، ويعتمد على الخبرة الحقلية، باعتبارها عنصراً جوهرياً في

تمرين الطلاب وتدريب الدارسين لهذا العلم^(٨).

أما عالم الأنثربولوجيا الشهير مالينوفسكي، فهو الذي عمل على تدعيم البحث الحقلى في ميدان الأنثربولوجيا، فقد قام بدراسة لسكان جزء التروبرياند Trabriand في ميلانيزيا أمضى فيها فاربع سنوات من عام ١٩١٤ - ١٩١٨. وهي فترة تطول كثيراً عن المدة التي أمضها أي باحث أنثربولوجي من قبل، كما كان مالينوفسكي أول أنثربولوجي يستخدم لغة الأهالى في إجراء البحث، وكان كذلك أول من عاش مع الأهالى وبطريقتهم الخاصة طيلة مدة الدراسة. وترجع أهمية دراسات مالينوفسكي الحقلية إلى أنها أكدت أن فهم الحياة الاجتماعية لدى شعب من الشعوب لن يتحقق إلا إذا درست دراسة مركزة ، كما كان يؤمن بأن القيام بدراسة حقلية مركزة واحدة على الأقل في مجتمع يختلف جزئياً ضرورياً من تدريب الباحث الأنثربولوجي .

* ومعنى هذا أن الدراسة التكاملية Integerative في الأنثربولوجيا لن يتحقق إلا إذا اتصل الباحث اتصالاً مباشرًا ووثيقاً بالمجتمع والثقافة التي يتناولها، وهذا ما يعرف بالدراسة الحقلية Field-study. أي أن الباحث عليه أن يعيش المجتمع ويلاحظ نظمها ملاحظة مباشرة ودقيقة .

* وعموماً : فإن أهم المطرق والأدوات المستخدمة في البحث الأنثربولوجي يمكن ذكرها على النحو التالي :

(٨) أحمد أبو زيد، ١٩٥٦ «الطريقة الأنثربولوجية في دراسة المجتمع».. حلويات كلية الآداب- جامعة الإسكندرية، المجلد العاشر ص ٢-٥ .

(١) الملاحظة بالمشاركة .Participant observation

(٢) الاعتماد على الإخباريين .Informants

(٣) الإقامة في مجتمع البحث

(٤) إجراء المقابلات Interviewees

(٥) استخدام أنواع التسجيل (الكتابية، الصوتية، المرئية..الخ).

(٦) دراسات الحالة Case studies

* أما عن أداة الملاحظة بالمشاركة فهي تتلخص في أن يعيش الباحث أو القائم بالملاحظة مع الأشخاص المطلوب ملاحظتهم لفترة زمنية طويلة نسبياً، قد تمتد إلى ما يقرب من العام، وذلك للتعمق في فهم خصائصهم الاجتماعية والثقافية والسلوكية والاقتصادية، وقد استخدمت هذه الطريقة في البحوث الأنثropolوجية، وبخاصة في دراسة مجتمعات كثيرة وثقافات وأحياء، ومدن ومحانع وجماعات، ويتعين على الباحث الملاحظ المشارك أن يبتعد عن التحيز لفترة من الفئات فإذا قام بدراسة مصنع مثلاً فإن عليه أن يدرس العمال والإدارة دون أن يتحيز إلى جانب فئة معينة منهم، وهو يندمج في الواقع الذي يعايشه، ولكنه يحاول قدر المستطاع أن يصوره تصويراً موضوعياً .

وهذا لا بد من الإشارة إلى الالتزام الأخلاقي للقائم بالملاحظة، فاستخدام الملاحظة المشاركة يقتضي من الباحث الإقامة الكاملة في مجتمع الدراسة والاندماج مع أعضائه، وهو في هذه الحالة يتعرف على كل ما هو «تحت السطح»، ومن ثم يواجه مشكلة وبخاصة عند

مرحلة كتابة تقرير البحث ونشره، فهل يخضع في سلوكه لمتطلبات العلم التي تقضي منه الصدق والتزام الصدق المطلق؟ أم أنه يهدف بعض الأمور التي تمثل خصوصيات المجتمع أو الجماعة والتي استطاع إدراكتها من خلال العلاقة الوثيقة التي تطورت أثناء إجراء البحث، وربما يكون في حذف هذه المعلومات وإخفائها تشويهاً لنتائج البحث، ومن المؤكد أن الباحث قد التزم بأنه لن يحدث ضرراً لأولئك الذين حصل منهم على المعلومات، لذلك فإن مواجهة تلك المعضلة يعتمد إلى حد كبير على أخلاقيات الباحث القائم باللاحظة المشاركة، لذلك يلجأ الباحث إلى تعريف بعض أفراد المجتمع المستنيرين بمهمته الأساسية ، والتي من الممكن أن يستقيد منها أعضاء المجتمع أنفسهم في البرامج التي تهدف صالح أعضاء المجتمع، وإن تغيير المجتمع يأتي حال من الأحوال .

* أما طريقة الاعتماد على الإخباريين: فهي تعتمد على الاستئانة ببعض المرشدين أو بعض الإخباريين *Informants* الذين يكونون في العادة من السكان الأصليين للمجتمع نفسه، ويقومون بدور أساسى يتمثل في تقديم المجتمع للباحث، وتعريفه بمحاجة، كما يكون لهم دور في تعليم الباحث الأنتropologى لغة الأهالى، لكن ذلك لايعنى أن يكتفى الباحث الأنتروپولوجى بتلك المعلومات والتفسيرات التي يحصل عليها عن طريق الإخباريين بل عليه أن يتحقق بنفسه من كل ما يذكر أو يقال له، ومن ثم فإنه يتأخذ من الإخباريين مدخل للإندماج في المجتمع والتعرف عليه، لذلك لابد أن

يستعين الباحث الأنثربولوجي في دراسته الحقلية بعدد من الأشخاص الذين يشغلون مراكز وأوضاع أساسية في مختلف قطاعات البناء الاجتماعي ويفترض أن يكون لدى هؤلاء الإخباريين معرفة تفصيلية بالثقافة السائدة، وهذا لا يمنع من أن يعتمد الباحث بصفة دائمة على إخبارى أساسى، بحيث يعتبره معاوناً أساسياً له في الدراسة .

ومن المواد التي يقييد منها الباحث الأنثربولوجي، والتي يحصل عليها من بعض الإخباريين، تلك المادة المسجلة سواء كانت صوراً فوتografية، أو أشرطة تسجيل مسجل عليها مواد ثقافية عديدة، أو أفلاماً لبعض الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، يمكن أن تقيد الباحث فائدته محققة في إجراء بحثه والإلام بعنانصر البناء الاجتماعي لمجتمع بحثه .

***• والإقامة في مجتمع الدراسة:** تتطلب ضرورة أن يتعلم الباحث اللغة الوطنية التي يتحدث بها الأهالى، لأنه حين يتكلّم لغة ذلك المجتمع، فإنه يتّعلم في نفس الوقت ثقافتهم ونظمهم الاجتماعية التي تقبّلوا في مصطلحات تلك اللغة والفاظها، فكل شيء في حياة الأهالى الاجتماعية يعبر عنه إما في شكل الفاظ، أو في شكل أفعال، أي إما بالقول أو العمل، وحينما يصل الباحث إلى فهم معانى كل كلمة من كلمات تلك اللغة وطريقة استعمالها في مختلف المواقف والمناسبات يمكن قد استكملا دراسة المجتمع .

* أما عن المقابلة : فهي أداة للبحث تمثل الحوار الفكري الذي يتم وجهاً لوجه بين الباحث القائم بال مقابلة وبين شخص آخر أو مجموعة أشخاص آخرين .

وعموماً، فإن المقابلة تتكون من ثلاثة عناصر متميزة هي :

أ- القائم بال مقابلة Interviewer

ب- المبحوث Interviewee ..

ج- موقف المقابلة The Situation of Interview

وهناك ارتباط وثيق بين العناصر الثلاثة على نحو يؤثر في النتائج العامة للمقابلة، ويتوقف نجاح المقابلة إلى حد كبير على مهارة الباحث القائم بها، ومدى فهمه لن الواقع السلوكي، ومبانع وعيه وإدراكه لمختلف العوامل في الموقف المحيط به، والتي تدفع المبحوث في بعض الأحيان إلى الورق موقفاً سلبياً من الباحث أو إعطاء بيانات محرفة لا تقسم بالثبات والصدق .

والمقابلة من يحتاج إلى مهارة وخبرة ومران وتدريب يكتسبها الباحث عن طريق الممارسة العملية والنزول إلى الميدان والاحتياك بجمهور البحث، والقدرة على النقاد إلى الواقع السلوكي، ومكونات الشخصية ، وأساليب الاتصال والتاثير. لذلك فإن المقابلات التي يعقدها الباحث مع أعضاء المجتمع، من شأنها أن تجعله قادراً على إدراك الدلالات المختلفة لأنماط السلوك وال العلاقات الوظيفية بين الظواهر والنظم السائدة^(١)

ويستطيع الباحث أن يختار موضوعات المقابلة بالإعتماد على

(١) محمد علی محمد، مرجع سابق ، ص ٢٦٤ .

بعض المؤلفات المتاحة لدى الأنثروبولوجيين، والتي تقدم لهم دليلاً عاماً للدراسة الحقلية، وأكثر هذه المؤلفات شيوعاً هي «موجز المراد الثقافية»، ميردوك Merdouk ١٩٦٠، والدليل الذي أصدره المعهد الملكي للأنثروبولوجيا في بريطانيا عام ١٩٥١ بعنوان : ملاحظات واستفهامات في الأنثروبولوجيا *Botes and queries on Anthropology* وتحتوي الدليل الأول على ثمانين فئة عامة تنقسم إلى ٦٢٢ موضوعاً، يضم كل منها ما بين ٥ - ٢٠ موضوعاً متخصصاً للبحث، هذا فضلاً عن أن الباحث يستطيع أن يستعين أيضاً بمؤلفات أخرى مخصصة لميادين محددة بالذات مثل عملية تنشئة الأطفال اجتماعياً *Socialization*، وهي تستخدم جمعياً كأساس للمقابلات.

* أما عن الأدوات المستخدمة في البحث الأنثروبولوجي ، فهي متعددة تبدأ بالتسجيل اليومي الكتابي في جمع المادة الأنثropolجية (المادة الوصفية Ethnographic Data) من الميدان يتخللها استخدام مجموعة مختلفة من أدوات جمع المادة، سواء كانت أدوات تستخدم التسجيل الصوتي (كاسيت) أو تصوير فوتوغرافي للحياة اليومية في المجتمع، حتى أيضاً التصوير المرئي، أو ما يعرف بالأنثروبولوجيا المرئية .

* أما دراسة الحالة ، فهي تمثل أداة تحليلية للسلوك والمواصفات الاجتماعية ، وطريقة للتعقب الكيفي في فهم الظواهر، والحالة التي يدرسها الباحث قد تكون شخصاً أو جماعة مثل الأسرة أو مجتمع

محلى، والهدف من دراسة الحالة هو البحث التفصيلي لكافة جوانب الحالة المراد دراستها. ومن ثم يحاول الباحث أن يجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن هذه الحالة، وبخاصة تلك المعلومات التي تتحصل بتاريخ حياة المقالة وتطورها، ويمكن استخلاص أهم خصائص دراسة الحالة على النحو التالي :

- ١- إنها طريقة للحصول على معلومات شاملة عن الحالة الم درستة.
 - ٢- إنها طريقة للتحليل الكيفي للظواهر والحالات.
 - ٣- إنها طريقة تهتم بال موقف الكل و بمختلف العوامل المؤثرة فيه والعمليات التي يشهدها.
 - ٤- إنها طريقة تتبعية، أي أنها تعتمد اعتماداً كبيراً على عنصر الزمن، ومن ثم فهي تهتم بالدراسة التاريخية.
 - ٥- إنها منهج ديناميكي لا يقتصر على بحث الحالة الراهنة.
 - ٦- إنها منهج يسعى إلى تكامل المعرفة، لأنها تعتمد على أكثر من أداة للحصول على المعلومات.

ثالثاً : بين المنهج والنظريّة في البحث المقلوي الأنثربولوجي :
تواجه البحث الاجتماعي - عموماً - معضلة منهجية فريدة، ألا
وهي أن ظروف البحث في ميالين هذه العلوم تشكل متغيراً مركباً
شديداً يؤثر تأثيراً مباشراً فيما تخلص إليه البحث من نتائج، ومن
ثم يستخدم مصطلح البحث المقلوي Field Research لكي يعني
في الحقيقة موقفاً منهجياً محدداً وصريحاً لهذا المصطلح أساساً

بأداة بحثية معينة هي أداة الملاحظة بالمشاركة Participant observation التي تستخدم استخداماً رئيسياً في البحث الأنثropolوجية الاجتماعية والثقافية، إذ استطاع الأنثropolوجيون باستخدام هذا التكنيك جمع تراث هائل حول مختلف الثقافات والمجتمعات، دون أن يحظى هذا التراث - للأسف - بمحاولة نظرية تستهدف تصنيفه ووضع الأساس التفسيري له، لكن طريقة الملاحظة بالمشاركة أصبحت تشكل لب المنهج الأنثropolوجي في الدراسة الحقلية، إذ تقتضي من الباحث أن يقيم فترة كافية من الزمن في المجتمع محل الدراسة، يستطيع معها أن يتعرف على الوظائف المختلفة - الظاهرة والكامنة - التي تؤديها النظم الاجتماعية أو العناصر الثقافية، ويعتقد الأنثropolوجيون أن هذه الطريقة سوف تمكن الباحث من جمع أكبر قدر ممكن من البيانات والمعلومات، ووصف الحياة الاجتماعية والثقافية ومسا تمثيلها بدقة، يستطيع الباحث أن يكتب بعدها تقريراً متكاملاً ومفصلاً عن هذا المجتمع أو تلك الثقافة التي يدرسها .

* ومن هنا لا بد من الوقوف على بعض المشكلات المنهجية في البحث الأنثropolوجي الحقلى، إن المشكلات الخامسة بالملاحظة والتفسير والتسجيل ملامضة البيانات للنظرية تظهر بوضوح في البحث الحقلى لأن الملاحظ جزء من الميدان الذي يعمل فيه .

والمشكلة المنهجية الرئيسية في هذا الميدان نتيجة لفارق بين الواقع الطبيعي، كما يصفه عالم الطبيعة والواقع الاجتماعي كما

يمسه العالم الاجتماعي وقد حدد ألفريد شوتز A. Shutz هذا الفارق في هذه الفقرة التالية :

(إن هذه الأمور ترجع إلى الحقيقة التي مفادها أن هناك فارقاً جوهرياً في بناء الأفكار والمفاهيم التي يكونها المتخصصون في العلوم الاجتماعية وتلك التي يكونها المتخصصون في العلوم الطبيعية .

فمن اليسير بالنسبة للعالم الطبيعي أن يحدد في ضوء القواعد الإجرائية للعلم الذي يتخصص فيه مجال ملاحظته وأن يحدد أيضاً الواقع، والبيانات، والحوادث الملائمة لمشكلته أو ليبحث العلمي الذي يقوم به .

ولايتضمن العالم الطبيعي كما يستكشفه عالم الطبيعة أية معانٍ خاصة أكثر من الجزيئيات، أو الذرات، أو الألكترونات كما توجد بالفعل. أما مجال الملاحظة بالنسبة للباحث الاجتماعي ، أي الواقع الاجتماعي، فإن له معنى محدد وبناء يناسب الكائنات الإنسانية التي تعيش، وتتغذى، وتنتفع فيه. وقد استطاعت هذه الكائنات أن تفسر هذا الواقع من خلال خبرتها اليومية المباشرة ومن ثم يصبح على الباحث الاجتماعي أن يصوغ مفاهيمه وأفكاره، التي سوف يدرس بها الواقع في ضوء التفسيرات التي طورها الناس خلال حياتهم اليومية ويدون ذلك تصبح دراسته منعزلة عن حياة الناس وأفكارهم، أي منعزلة عن الموضوع الذي يدرسه أصلًا، وإن كان الملاحظ ليس جزءاً من المجال السلوكي الذي يدرسها. وعموماً فإن الملاحظ كجزء

من مجال السلوك الذي يدرسها يصطحب معه مجموعة من المعانى والأفكار الملائمة التى تمكنه من الدخول إلى البيئة التى يدرسها ويلاحظها، عند هذه النقطة تواجهه بعض المشكلات . نذكر منها ما يلى :

- ١- إن عليه أن يفسر سلوك الأشخاص الذين يلاحظهم وفقاً للمعنى الذى تسود فى حياتهم اليومية .
- ٢- إن عليه أن يكون تصوراً نظرياً يأخذ فى اعتباره قيم واتجاهات ومعانى السلوك الذى يلاحظه على نحو يسمح له بعقد صلات شخصية متبادلة مع الأشخاص والجماعات التى يدرسها.
- ٣- إنه إن يستطيع أن يكون علاقه اجتماعية حميمة فى الواقع الاجتماعى دون أن يتجاهل ولو جزئياً اتجاهه العلمي .

والواقع أن الاعتبارات السابقة تطرح أمامنا مشكلة رئيسية وهى كيف تشق فى المعلومات التى يتضمنها الباحث الحقلى فى بحثه من الناحية العلمية وإلى أى مدى نستطيع أن نقيم على أساسها نظريات تفسيرية ؟

والمشاركة المعمقة تتقلل درجة تقدير المقابلة، لكن المشاركة تقدم لنا نظرة أكثر ثراء للعمليات الاجتماعية، ويدون استخدام بعض أنواع الأسئلة المنظمة خلال المشاركة تصبح هذه الطريقة ذات فائدة محددة جداً بالنسبة لاختبار صحة الفرض .

إن الاستخدامات الحديثة لطريقة الملاحظة المشاركة في البحث الحقلى تميل إلى تسجيل ما يقع من حوادث، ذلك باستثناء عدد قليل

من الدراسات التي تستعين بهذه الطريقة في التحقق من صحة الفروض، نذكر منها دراسة قام بها عدد من علماء النفس والأنثروبولوجيا حول تنشئة الأطفال وأساليبهم في الثقافات المختلفة^(١٠).

لكن ستنظر المشكلة الرئيسية هي عدم وجود نظرية محددة أو عدم رغبة الباحث - على الأقل - في توسيع افتراضاته النظرية مبدئياً، وإنما تتحصر مهمة هذه الدراسات في الفالب في إضافة العديد من الملاحظات الوصفية في ميدان العلوم الاجتماعية.

* لذلك فعلى الباحث أن يحدد الأسس التي ترتكز عليها استنتاجاته، والتي يمكن تلخيصها على النحو التالي :

١- على الباحث أن يصوغ بوضوح ما يسعى إلى تحقيقه في بحثه، وأن يستكشف بعض القضايا النظرية العامة، ويختبر صحة الفرض .

٢- المعلومات التي يمكن للباحث الحصول عليها في البحث العقل، يتبعن عليه استكمالها مباشرة، وبخاصة الدراسات الخامسة بالتراث، والتي يحصل عليها من دراسته الميدانية .

٣- يجب على الباحث على أن يحدد الإجراءات التي تناسب أهداف بحثه، مثل صياغة بعض أسئلة المبحوثين، وتحديد نوعية الصلات التي يتبعن عقدها مع مجتمع البحث .

(10) Becker & Geer, B., "Participant observation and Interviewing: A comparison oranization , 10, No.3, 1959, pp. 28-32 .

هذه كلها تعد صورة لبعض التوجيهات التي يجب أن يسترشد بها الباحث الحقلى في ميدان الأنثربولوجيا، لكن الواقع الذي يحدث فعلا في هذه البحث يمكن إنجازه في القضايا الآتية :

- ١ـ عادة ما تكون لدى الباحث فكرة عن مشكلة البحث، وحتى من النتائج التي سيحصل إليها، ومعنى ذلك أن يتوجه نحو البحث الحقلى وفي ذهنه الحصول على معلومات معينة بالذات تدعم أفكاره المبدئية.
- ٢ـ كثير من الباحثين يتوجهون للميدان ولديهم أنكار عن نتائج البحث السابقة، وقد يستخدمون هذه الأفكار في إسامة فهم المعلومات التي يحصلون عليها .
- ٣ـ يخلو - أحياناً - تقرير البحث من التصور الزمني الذي يعني ضرورة تحديد المراحل التي مرت بها الدراسة الحقلية، وأثر كل مرحلة منها في تعديل أو تطور أهداف البحث وما خلص إليه من نتائج .
- ٤ـ الاتجاه العام في الدراسات الحقلية، هو إبراز النتائج الواقعية والمعلومات الوصفية، أكثر من الاهتمام باستخدام هذه المعلومات في تطوير البناء النظري والأسس المنهجية .

أهم مراجع الدراسة

أولاً المراجع العربية

- ١- أحمد أبو زيد، ١٩٧٤، «البناء الاجتماعي - ج ١ الفهومات»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية.
- ٢- أحمد أبو زيد، ١٩٥٦، «الطريقة الأنثropolوجية في دراسة المجتمع»، حوليات كلية الأداب - جامعة الإسكندرية، المجلد العاشر.
- ٣- محمد على محمد ، ١٩٨٢، «علم الاجتماع والمنهج العلمي: دراسة في طرق وأساليب البحث»، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية.
- ٤- محمد محمود الجوهري، ١٩٨٥، «الأنثropolوجيا: أساس نظرية» ، دار المعرفة ، الإسكندرية.

ثانياً المراجع الأجنبية :

- (1) Becker & Geer,B. "Participant observation and Interviewing: Acomparison organization, 10. No. 3 1957 .
- (2) Malinowski, B., 1922, Argonauts of the western pacific london, Rouledge & kegn paul,
- (3) Nadel, 1958, "Foundations of social Anthropolgy". Glencoe, the fress .
- (4) Warwick , D., & samuel osherson, 1973, "Comparative Research Methods" N.J. Prentice Hall .

مناهج البحث في علم النفس الحديث

(رواية نقدية)

د. عبد الرحمن العيسوي (*)

(*) أستاذ علم النفس بجامعة الاسكندرية

تترافق نتائج البحث العلمية ومدى ما يتتوفر فيها من الدقة والموضوعية وما تتسم به من التقدم والتطور على المنهج الذي يستخدمه العالم في الكشف عن الحقيقة وفي وصف المظاهر التي يقوم على دراستها وفي عرض المعطيات أو المعلومات التي يتوصل إليها، فكلما زاد المنهج دقة وصواباً وكلما كان أكثر ملائمة لظاهرة المدرسة كانت المعطيات أكثر دقة وسلامة بل وأكثر قابلية التطبيق ومن ثم استخدام العلم وتقنياته في تطوير المجتمع والنهوض به وهو الأمر الذي يمثل الهدف الأساسي أمام علمائنا في الوقت الحاضر، ولاشك أن ما أحرزه العلم من تقدم يرجع إلى ما حصل من تطور في مناهج البحث وأدواته وعلى ذلك فإن المنهج لا يقل أهمية ولا قدراً من النظرية أو القانون في المجال العلمي، وجدير باللاحظة أن ما أحرزه علم النفس الحديث من تقدم إنما يرجع إلى انتهاجه المنهج العلمي وخاصة في عمليات التشخيص وتطبيق تقنيات القياس النفسي والتربوي واستخدام منهج الملاحظة بائراعها.

تطور علم النفس :

لقد تطور الفكر السيكولوجي حيث تحرر من سيطرة الخرافية والشعوذة والدجل والأوهام، فلقد أتى حين من الدهر كانت الأمراض العقلية والنفسية التي تصيب الإنسان تنسب إلى مس من الجن والشياطين أو الأرواح الشريرة التي كان يعتقد أنها تلبس جسد الإنسان، وكان الإنسان يعتقد في القديم أن ما يصيبه من الأذى يرجع إلى غضب الآلهة أو إلى سخط الطبيعة وثورتها عليه، ولقد

تحول الفكر السيكلوجي من ذلك إلى الفكر الفلسفى وظلت الموضوعات النفسية تدرس فى إطار الفلسفة التى كانت تضم جميع العلوم و من ثم كان يطلق عليها «أم العلوم». كانت الموضوعات والظواهر النفسية تدرس بالمنهج الفلسفى ومقدار التأمل والنظر ثم تحول الفكر السيكلوجي إلى المنهج العلمى الموضوعى ولذلك استعار علم النفس من العلوم الطبيعية المتأهله الذى تستخدمها وقوامها الملاحظة والتجربة وال الموضوعية، واستخدم علم النفس الرياضة أو الاحصاء لغة فى وصف معطياته وفى استخلاص النتائج والحقائق والقوانين والنظريات. ومن هنا أقيمت معامل علم النفس ومخبراته وتم وضع العديد من الاختبارات والمقاييس وتم تصميم مئات الأجهزة والأدوات التى تستخدم فى قياس قوى الإنسان وأمراضه قياسا كميأ رقريا .

لقد استمد علم النفس الحديث خاصية العلم من انتهاجه المنهج العلمى ولذلك أصبح علم النفس الحديث يقف فى مصاف العلوم الطبيعية الأخرى كعلم الطب وعلم وظائف الأعضاء وعلم التشريح وعلم الحياة. وإن كنا لا ننكر أن الظواهر التى يتصدى علم النفس لدراستها أكثر صعوبة وأكثر غموضا وأكثر تعقيدا وأكثر تاثرا بالعوامل الذاتية سواء باعتبارها نابعة من الإنسان الذى تتولى دراسته فهى خبرة ذاتية شخصية أو يحكم تأثيرها بالعوامل الذاتية لدى من يقوم بدراستها. هل إنها أكثر صعوبة لأنها، فى كثير من الأحيان، عوامل عاطلة للإنسان واتجاهاته وميله ومشاعره وألام

الداخلية، وأذكى كان الجدل يثار حول إمكانية القياس الكمي لأمر معنوي. وقد تغلب علم النفس على هذه المعضلة بأن ترك مفاهيمه وتصوراته المعنوية أو المجردة تركها ودرس أثارها أو نتائجها أو علاماتها كما تظهر في «سلوك» الإنسان وبذلك نجع علم النفس في دراسة ظواهر أو مفاهيم مجردة مثل الذكاء أو التعلم أو الإدراك والقدرات الدالة على ذلك ، درسها بطريقة غير مباشرة وذلك عن طريق دراسة السلوك الذي يدل عليها والذي يفترض أن القدرة تكمن وراء هذا السلوك، ومن هنا كان القول بأن الذكاء مثلاً «مفهوم افتراضي» بمعنى أنه لا يوجد بصورة مشخصة ولا يخضع للملاحظة أو التجريب أو القياس باعتباره جوهرًا مجرداً ومعنويًا وإنما هو مفهوم نحن الذين نفترض وجوده افتراضياً وذلك من ملحوظة مجموعة من مظاهر السلوك «الذكي» أو من ملحوظة عينة ممثلة للسلوك الذكي . ومن هنا تخلص علماء النفس من الصعوبة التي كانت تواجههم أذا تعريف الذكاء أو تحديد مفهومه تعريفاً جاماً ما إنما وإنما اكتفوا بتعريفه «تعريفاً اجرائياً» فحواه أن الذكاء هو ما تقيسه اختبارات الذكاء ومن التأمل في فحوى هذه الاختبارات والتعرف على مضمونها نجدها تتضمن عينات من القدرة على التفكير والاستدلال والاستبطاط والنقد والحكم والمقارنة والإدراك والتصور والتخيل والمقارنة والتحليل والتركيب والتعلم والتذكر وحل المشكلات والتكيف للمواقف الجديدة وإقامة علاقات اجتماعية إيجابية مع الغير والقدرة على الخلق والإبداع والابتكار .

تنوع طرق البحث المستخدمة في علم النفس الحديث:

على الرغم من أن علم النفس الحديث قد انتهت منه العلوم الطبيعية في دراسة الظواهر النفسية كالمقدرات أو السمات أو الاستعدادات أو الأمراض، إلا أنه لا يوجد منهاج واحد يستخدمه جميع علماء النفس وإنما هناك متاهج متعددة أو مداخل مختلفة في دراسة السلوك الإنساني، وما يزال الباحث السيكولوجي يتهدى لدراسة ظواهره وهو متاثر بالخلفية العلمية أو التراث العلمي الذي يؤمن به كالاتجاه التحليلي أو السلوكي أو الأكلينيكي أو الطبي، وهناك منهاج يؤيده كاتب هذه السطور ويدعو إليه وهو استخدام أكثر من منهاج في دراسة الظاهرة والنظر إليها من منظار مختلف أو من خلفيات متباعدة. ومثل هذا المنهج يقدم لنا صورة أكثر تكاملاً وشمولاً للظاهرة المدرستة. فالمنهج الكمي وحده يعتمد على أرقام، والأرقام حقائق جامدة آلية صماء لا بد للباحث السيكولوجي من استطاعتها ولابد من النظر إليها للتعرف على مدلولها وأثارها وتطبيقاتها ومساعها ووظيفتها النفسية والتربوية والأخلاقية والروحية والاجتماعية، أي لابد من النظر إليها وفقاً لمنهج التحليل النفسي بما يتضمنه من العمق والعمق في أعماق النفس البشرية وسيبر أغوارها وارتياح مجاهلها والتعرف على مكونات النفس الإنسانية وما تحتويه من اللاشعور ومن الأمال والألام والذكريات المنسية أو المكبوتة أو المترسبة في أعماق اللاشعور والتعرف على صراعاتها

وأزماتها وعقدمها، النظر إلى كل هذه القوى الفاعلة في الذات الإنسانية نظرة تكاملية تأخذ بعين الاعتبار ما تقسم به العلاقة بين قوى الذات الشعورية واللاشعورية وسمات الشخصية ومقوماتها وما يقوم بيئتها من «ديناميكية» بمعنى علاقة «التفاعل» القائمة بين عناصر الشخصية فيما بينها من ناحية وبين الشخصية الإنسانية باعتبارها كلاً متكاملاً متفاعلاً وبين عناصر البيئة الخارجية المادية والاجتماعية، وتزداد الصورة وضوحاً إذا أرتد الباحث إلى الوراء مهتمدياً بعياديِّه المنهج التاريخي فدرس تاريخ الحالة وتعرف على ظروف الفرد منذ ميلاده حتى وقت اجراء الدراسة أو المعالجة، بل يفضل أن يرتد إلى ما هو أعمق من ذلك فيرتد إلى لحظة الاصباب وظروف الخلق والانجاب ويدرس ما تعرضت له ألام العامل من المؤثرات ^{الذاتية} التي تترك بصماتها على شخصية الفرد.

في خاتمة ذلك نقول أن هناك عدداً من المنهج التوعية التي تستخدم في العقل البيطريولوجي سواء في دراسة الظواهر أو في الممارسة ^{البيونية} للأخصائي النفسي، من ذلك منهج الاستبطان أو التأمل ^{الباطني} أو منهج وصف الذات، ثم هناك منهج الاستقطاب والذي يعتمد على عملية الإسقاط وهي عملية عقلية لا شعورية يسقط الإنسان فيها مشاعره هو واتجاهاته ورميوله على غيره من الناس والأحداث والأشياء، ثم هناك المنهج الوصفى ويهتم بوصف الظاهرة النفسية، والمنهج التاريخي ويهتم بدراسة تاريخ الإنسان أو تاريخ المرض وهناك منهج التحليل النفسي والذي يستهدف الكشف عن

محتويات اللاشعور، ثم هناك المنهج الأكلينيكي ويتضمن استخدام الخبرة المهنية العامة في تشخيص الأمراض ووصفها، وهناك المنهج العلمي أو الموضوعي أو التجاري، ومن التقنيات المستخدمة فيعلم النفس، وهي كثيرة أيضاً، التجربة واللاحظة والقابلة الشخصية والقياس، ويستخدم القياس في المكان المناسب أي ذلك الذي يتفق مع ما لديه من قدرات واستعدادات وميول واتجاهات ومهارات وخبرات ومهارات وسمات شخصية، كما يستخدم القياس في المجال المهني أو مجالات العمل والعمال أو مجالات التوظيف بغية وضع الرجل المناسب في المكان المناسب كما يستخدم القياس في المجال العسكري وفي مجالات قياس الرأي العام وفي المجال الطبي أو الأكلينيكي لعمل التشخيص للحالة المعروضة بمعنى معرفة كم وكيف المرض أو الأضطراب، ويستخدم القياس في مجال البحوث العلمية للتحقق من صدق الفرض أو بطلانها كالتعرف على ما هو رائق وما هو مكتسب، والتعرف على ما قد يوجد بين الأفراد أو الأجناس أو الأنواع من فرق.

ومن الأمور الجديرة بالتمييز ما يعرف في الدراسات النفسية «بالمنهج الطولي» والمنهج العرضي أو المستعرض» في دراسة ظواهر نفسية مثل النمو، فما الذي تقصده بالمنهج المستعرض؟

إذا أراد باحث أن يتعرف على ما يحدث من تطور في اتجاهات الراهقين نحو المرأة مثلاً مقارنة باتجاهات الشباب نحوها في هذه الحالة، ووفقاً للمنهج المستعرض، فإنه يأتي بمجموعات من الشباب

والراهقين من أرباب أعمار مختلفة ويقيس اتجاهاتهم جميعاً في وقت واحد، فإذا وجد فروقاً بين اتجاهات الشباب والراهقين، أرجع ذلك إلى عامل العمر وما يصاحبه من النضج، ولكن يعاب على هذه الطريقة أن هذا الفرق لا يرجع إلى عامل النضج في ذاته، فعندما نقارن الآن بين اتجاهات طفل في سن العاشرة واتجاهات شاب في سن العشرين، فإننا ننسى أن الشاب قد عاش لمدة عشر سنوات في ظروف ثقافية وحضارية وأجتماعية واقتصادية وسياسية مختلفة عن تلك التي عاشهما طفل العاشرة، ولذلك قد يرجع الفرق الملاحظ إلى الظروف الثقافية وليس إلى عامل العمر أو السن في ذاته على كل حال يتمتع المنهج المستعرض بالسرعة وقلة التكلفة وهو اقتصادي في الجهد والوقت والمال وفيه لانفصال أياً من أفراد عينات البحث.

أما المنهج الثاني وهو ما يعرف باسم «المنهج الطولى» أو المنهج التبعي، وفيه يتتبع الباحث نفس الفرد أو الأفراد أو الأشخاص هم بعينهم يتتبعهم عبر سنوات عمرهم أو مراحل نومهم، فيدرس مثل الذكاء أو العبرية عند مجموعة من الأطفال، ويظل يعاود قياس ذكائهم لهم في سن الخامسة فالعاشرة وسن الخامسة عشر فالعشرين حتى يصلوا مثلاً إلى سن الستين، ليتعرف على ما قد يطرأ على ذكائهم أو تبوغهم أو تفوقهم عبر مراحل العمر المختلفة ولكن ما الذي يعيّب هذا المنهج؟

يعيب هذا المنهج فقدان بعض أفراد العينة بالموت أو بالهجرة أو برفض إجراء التجربة عليهم كذلك قد يموت الباحث دون أن يستكمل

بحثه، ويستغرق هذا المنهج وقتا وجهدا كبيرين وبالتالي تهبط تكاليفه.

طرق اختيار العينات في البحوث النفسية :

علم النفس، كغيره من العلوم الطبيعية، يعتمد على العموميات وليس على الحالات الفردية، ولذلك يعتمد بالدراسة التي جرى إلى شخص واحد، وإنما لابد وأن يجرى الباحث السيكلوجي تجاريه أو قياساته على مجموعة كبيرة نسبياً من الأفراد وذلك حتى يمكن الاطمئنان إلى تعميم ما يحصل عليه من نتائج، ويشترط في العينة الصالحة في البحث الجيد أن تكون مختارة اختياراً عشوائياً أي دون تحيز الباحث في اختيار أفرادها من بين أبناء مجتمع معين، لأن يأخذ الباحث أفراد عينته من أبناء مدرسة واحدة أو من حى واحد أو من ترد اسماؤهم في دليل التليفونات، ذلك لأنه ليس من الضروري أن يتضمن هذا الدليل جميع أبناء المجتمع، ولذلك يلتجأ الباحث إلى الاختيار العشوائى لأخذ عينة من بين أبناء مجتمع الأصلى، وتعنى العشوائية من بين ما تعنى الا يعتمد الباحث اختيار أفراد بعينهم وترك سواهم كما تعنى أن يكون لكل فرد من أفراد المجتمع الأصلى فرصة متساوية في أن يصبح من بين أفراد العينة المختارة للدراسة ومن أساليب تحقيق العشوائية أن يضع الباحث اسماء جميع أفراد أو كل مائة فرد حسب حجم العينة المسموح به في الدراسة وحسب الإمكانيات المتوفرة للباحث . ويشترط في العينة كذلك أن تكون ممثلة تمثيلاً جيداً لمجتمعها الأصلى وعلى ذلك تتضمن عينة البحث أفراداً

من الكبار والصغار، من الذكور والإثناين، من المتعلمين وغيرهم، من أرباب المستويات الاقتصادية العليا والدنيا، من الأحياء الراقية والمتدينة وهكذا .

وفيما يلي نسوق عرضاً تقدّياً لأهم مذايحة البحث عن النفس :

۱- الاستعمال

كان علماء النفس قد يمّا يتبعون منهج التأمل الذاتي أو التأمل الباطني أو الاستبطان Introspection ويقصد بالاستبطان تأمل الحالات الشعورية الداخلية التي يشعر بها الفرد، وتتراوح عملية الاستبطان بين التأمل البسيط أو الوصف البسيط لما نشعر به في حياتنا اليومية، كما يحدث عندما نصف للطبيب ما نشعر به من ألم، وبين التفكير العميق في أحوال الفرد الذاتية ومشاعره الداخلية وتحليلها ومعرفة أسبابها ونتائجها. وواضح أن هذا المنهج يعتريه التقصّ من جوانب متعددة تذكر منها ما يلى^(١) :

١- في أثناء عملية الاستبطان أو التأمل الداخلي، ينقسم الفرد إلى مُلِّاحِظٍ، ومُلِّاحِظٍ فهو نفسه الذي يقوم بـ ملاحظة نفسه و تسجيل ما يشعر به، وهذا يقودي إلى تغيير الحالة النفسية التي يريد تأثيرها وتحليلها. فعندما ينصرف الإنسان لتأمل حالة الغضب التي يشعر بها مثلاً، فإن ذلك يخفف من حدة انفعال الغضب عنده فـ ملاحظة الحالة الشعورية ومحاولة وصفها وتحليلها لا يمكن أن تحدث بذقة في

(١) عبد الرحمن العيسوي، دراسات سينكلوجية دار المعرفة ١٩٨١ من ١٧.

أثناء الحالة نفسها .

٢- لاشك أن الحالات النفسية الشعورية معقدة من ناحية ومن ناحية أخرى سريعة التغير والزوال، وعلى ذلك فلا يمكن ملاحظتها ملاحظة ذاتية أو وصفها وصفا دقيقا .

٣- أن هذا المنهج يقوم على أساس الملاحظة الذاتية أي ملاحظة الفرد لذاته فقط، وعلى ذلك فلا يمكن أن يشترك معه غيره ومن ثم فلا تصلح هذه الطريقة للبحث العلمي الذي يقوم على أساس الموضوعية وال通用ية وعلى ذلك فلا يمكن أن يتحقق باحث آخر من صدق الظواهر النفسية التي يصر بها الفرد فيما يمدنا به الاستيطان من معلومات، حتى أن كانت صادقة، فإإنها لا تصرف إلا على صاحبها فقط وليس من الضروري أن تكون عامة ومشتركة بين جميع الناس، والعلم الحديث يقوم على أساس اكتشاف القوانين العامة التي تفسر السلوك عند كافة الناس.

٤- لما كان هذا المنهج يقوم أساسا بتحليل الفرد لذاته، ووصفها فإنه يتاثر بميل الفرد واتجاهاته وأهدافه ونزواته الشخصية وتعصباته وتحيزاته، ومن المعروف أن - هذه الميل الشخصية تؤثر حتى في إدراكنا للعالم الخارجي، أما تأثيرها على وصف الإنسان لنفسه فإنه أكثر عملا لأن الإنسان دائما يتخيّل لنفسه ولا يوجه التهم إلى نفسه بل أنه يخفى على نفسه المشاعر والميول التي تعانقها نفسه ولا يحب أن يصارح نفسه نفسه بالأمور التي يخجل منها أو التي تظهره بمظهر غير خلقي أو غير اجتماعي ويسمى إلى إظهار نفسه

في صورة براقة مشرقة .

٥- إن منهج الاستبطان الذي يعتمد على وصف الفرد لذاته لا يصلح في دراسة الأطفال الصغار أو الحيوانات أو الصم والبكم أو الأجانب الذين لا يستطيعون التعبير اللغوي عن مشاعرهم. ورغم وجود نواحي الضعف هذه في منهج الاستبطان، إلا أنه يفيد في دراسة كثير من الحالات، حتى في علم النفس التجيري، فالباحث يسأل الشخص الذي يجري عليه التجربة لكي يصف له ما يشعر به أو ما يراه أو ما يسمعه، كذلك فإن الاختبارات التي يستخدمها الباحث لقياس سمات الشخصية تعتمد على ما يعطيه الفرد من معلومات عن نفسه عن طريق الاستبطان، فقد يسأل الباحث الفرد: هل تشعر بالغسل عندما يكون عليك أن تلتقي بآنس لأول مرة؟ وهل تفك في المستقبل كثيراً؟ هل تهتم كثيراً بآراء الآخرين فيك؟ هل يزعجك نقد الناس لك؟ كذلك فإن الاستبطان ما زال هو المنهج الممكن الوحيد لدراسة كثير من الظواهر النفسية كالشعور والأحلام وغير ذلك من الخبرات الشعورية الذاتية . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الاعتماد على السلوك الظاهري فقط قد يكون مضللاً ومخالفاً للحقيقة التي يشعر بها الفرد، فالسلوك الذي يتأتيه الفرد ليس دليلاً على وجود ميل حقيقي لدى الفرد نحو هذا السلوك. فإن العوامل الاجتماعية قد تسيطر على إرتياح لبعض مظاهر السلوك التي لا تتفق مع رغباته فقد يقدم لك صديقه لوناً لا تحبه من الطعام على مائدة، وقد تضطر إلى تناوله تمشياً مع الموقف. كذلك قد يسلك

الفرد سلوكاً يدل في ظاهرة على الكرم بينما الدافع الحقيقي حسب الشهرة، ومهما يكن من قيمة المنهج الاستيطانى الذاتى، فإن علماء النفس مكرراً في مناهج أخرى أكثر دقة ولذلك لجأ البعض إلى استخدام ما يسمى بالمنهج الإسقاطى .

بـ- المنهج الإسقاطى

يقصد بلفظ «الإسقاط» Projection في علم النفس أن يسقط أو أن يفرغ الفرد ما يشعر به هو على غيره من الناس، وأن يترجم ويفسر سلوكهم بالرجوع إلى خبراته الذاتية هو، فيرى الناس من زاويته هو وعلى ذلك فالمنهج الإسقاطى يتلخص في قيام الباحث بمشاهدة سلوك الإنسان أو الحيوان ثم تفسير هذا السلوك على أساس الخبرة النفسية للباحث نفسه تلك التي سبق أن خبرها هو في مثل هذا الموقف السلوكي وعلى ذلك فإذا رأيت شخصاً يبكي استنتجت أنه حزين، وإذا رأيت شخصاً يحصل ويجول في وسط الحجرة استنتجت أنه قلق وهكذا، ويعنى ذلك أنتا تفترض أن أحوالنا النفسية تشابه الأحوال النفسية التي يخبرها الغير وذلك في الظروف المشابهة ومما يؤخذ على هذا المنهج القول بأنه يندر أن تتفق الظروف الجسمية والنفسية والعقلية لفرد ما مع فرد آخر، بحيث يمكن أن يسقط أحدهما مشاعره على الآخر وبحيث يصدق هذا الإسقاط، والواضح أن مثل هذا المنهج لا يصلح في دراسة الحيوانات والأطفال وأبناء المجتمعات البدائية، التي تبعد المشقة بيننا وبينهم من حيث التكوين الشخصى والنمط المضارى هذا ولا يخفى أن السوك

الظاهري overt behaviour قد يكون مجرد تضليل وتمويه لما يشعر به الفرد حقيقة فمظاهر الكرم قد تكون لتنيل المكافأة الشخصية أو لتفطير ميل شديد للشجاع والبخل، فالسلوك الخارجي الظاهري ليس دليلاً حقيقياً في جميع الأحوال على الحقيقة الداخلية للفرد. تفاصياً لهذه العيوب التي يعاني منها منها منهج الاستبطان والاستقطاع اتجه علم النفس الحديث نحو انتهاج مناهج العلوم الطبيعية الحديثة وسار على نفس الأسس العلمية والموضوعية التي تسير عليها هذه العلوم والتي وصلت بفضلها إلىنتائج باهرة .

جـ- المنهج العلمي الموضوعي

يستهدف المنهج العلمي Scientific Method الموضوعي في علم النفس دراسة الظواهر النفسية أو الظواهر السلوكية دون أن يسقط الباحث عليها حالاته الذاتية، فلا يتاثر بحثه بميوله واتجاهاته وأرائه وتعصباته أو تحيزاته بل يسجل الواقع كما هي في الواقع بعيداً عن ذاته. فعند دراسة تطور لعب الأطفال مثلاً فإن الباحث ينسلخ بنفسه بعيداً عن الموقف، ويصف ويسجل كل ما يلاحظه وصفاً دقيقاً موضوعياً وكذلك الحال عندما يقوم الباحث بدراسة ظاهرة السلوك الإجرامي مثلما عند جماعة من الأفراد، فإنه لا يصدر أحكاماً خلقياً نابعة عن رأيه الشخصي في مثل هذا السلوك ولكنه يسجل ويرجع تفسيره بالاستناد إلى الحقائق التي حصل عليها. وجدير بالذكر أن تطبيق المنهج العلمي في علم النفس ليس عملاً ميسوراً ذلك لأن طبيعة الموضوعات التي يدرسها علم النفس

تختلف اختلافاً بينا عن طبيعة الموضوعات التي تدرسها العلوم الطبيعية، فالسلوك الذي يدرسه علم النفس يعد ظاهرة معقدة **Complex phenomenon** تتدخل فيها عوامل معقدة نفسية وعقلية وجسمانية واجتماعية وماربة. ون الصعوبة بمكان دراسة أثر أي من هذه العوامل مستقلاً عن غيره من العوامل الأخرى، ذلك لأن عزل هذه العوامل يعتبر عملية بالغة الصعوبة ويكتفى أن نتأمل أي عينة من سلوك فرد ما في موقف ما لكي نتبين مدى تداخل العديد من العوامل المتشابكة، فإذا ما تصورنا طالباً يؤدي الامتحان في مادة علم النفس مثلاً فإننا نلمس العديد من العوامل التي تؤثر على أدائه ومستواه في هذا الموقف ومنها ما يلى :

- ١- مستوى ذكائه.
- ٢- مقدار ما حصله من معلومات في مادة علم النفس
- ٣- ميله نحو هذا العلم ومقدار اهتمامه به .
- ٤- ما يوجد لديه من دوافع ورغبات في اجتياز هذا الامتحان .
- ٥- قدرته على التفكير في حل المشكلات النفسية .
- ٦- حالته النفسية والمرأجية والجسمية أثناء إداء الامتحان .
- ٧- سنه ومستوى نضجه العام .
- ٨- الظروف المادية المحيطة به أثناء الامتحان من حرارة ورطوبة وضوضاء وتهوية وبرودة وإضاءة .
- ٩- ما يوجد في الموقف من علاقات اجتماعية بينه وبين المحيطين به من زملاء وmentors فبما أراد الباحث معرفة أثر أي من هذه

العوامل على أداء الطالب وجب عليه أن يعد تجربة ب بحيث يثبت بقية العوامل أو يضيئها Control ثم يدرس هذا العامل وحده ويترك الحرية لهذا العامل وحده لكي يتغير .

فإذا أردنا معرفة أثر الذكاء Intelligence مثلاً في القدرة على التحصيل في مادة علم النفس، فإننا نأتي بمجموعتين من الطلاب أحدهما تتمتع بمستوى عالٍ من الذكاء والأخرى مستواها منخفض بشرط أن تتساوا في العوامل الأخرى كالسن والجنس والبيئة الاجتماعية وت نوع المدرسة وطرق التدريس والظروف الجسمية والصحية ومقدار ميلتهم نحو هذا العلم .. ثم نكاف كلًا من المجموعتين بتعلم قدر واحد من المواد النفسية وبعد فترة من الزمن نقيس تحصيل كل من المجموعتين، ونقارن بينهما فإذا حصلنا على أي فرق ذي دلالة إحصائية فلا بد إذن أن يكون مرجعه هو الفارق في مستوى الذكاء وجدير بالذكر أن المنهج العلمي في مثل هذه التجارب يتطلب أن تجرى التجربة على عدد كبير من الأفراد وأن تتكرر أكثر من مرة حتى يمكن الثقة فيما تعطى من نتائج وأن تكون العينة ممثلة تمثيلاً حقيقياً للمجتمع الأصلي وإلى جانب الصعوبة في عزل العوامل المختلفة المحاطة بالسلوك والمسئولة عنه، فإن السلوك نفسه يختلف عن الموضوعات المادية المحسوسة التي تدرسها العلوم الطبيعية، فقياس الطول أو العرض يختلف عن قياس الشعور .

وأقد اتخذ علم النفس، إلى جانب المنهج التجريبي وال موضوعي، اتخاذ من علم الاحصاء statistics وسيلة مبتكرة لمعالجة ما يحصل

عليه من نتائج فأصبح يعرف المتوسطات المسابقة Means لمجموعات مختلفة من الأفراد في القدرات التحصيلية والمعرفية وغيرها، وهكذا أصبح علم النفس يستخدم لغة الرياضية والاحصاء في عرض البيانات واستخلاص النتائج كذلك أصبح علم النفس الحديث معامل مزودة بأجهزة لقياس حدة السمع والأبصار والإدراك ودقنات القلب وسرعة التنفس وهكذا كذلك أصبح علم النفس يعتمد على المقاييس العقلية mental meusurie المختلفة والاختبارات الدقيقة التي تقيس الذكاء والقدرات والمهارات وسمات الشخصية المختلفة كالخجل والانطواء والعدوان والتعاون والطموح والقلق والخوف وغير ذلك وهناك نماذج حية من التجارب العملية في دراسة عملية التعلم. وعلى العموم يعتمد المنهج العلمي على دعامتين أساسيتين هما الملاحظة والتجربة Experiment and observation فيلاحظ الباحث الظاهرة ملاحظة دقيقة وسجل ما يرى كما يرسم التجارب التي تساعده على ملاحظة السلوك في موافق مضبوطة تشبه الواقع الطبيعي، ويتضمن المنهج التجاري اتباع الخطوات الآتية :

- ١- الملاحظة الدقيقة المقصودة حيث يلاحظ الباحث الظاهرة ويسجلها كما يلاحظ الباحث هبوب الأمطار أو هبوب الرياح أو سلوك التلاميذ في قاعة المدرسة .
- ٢- تحديد المشكلة تحديداً دقيقاً، ويتضمن ذلك وصفها وتعريفها، فقد يحدد الباحث المشكلة في تأخر الطالب في التحصيل في مادة ما

أو انحراف جماعة من الصبية .

٢- جمع البيانات والأدلة والشاهد والمعلومات الخاصة بالمشكلة واجراء التجارب وغير ذلك من وسائل الحصول على المعلومات .

٣- وضع الفروض أو الحلول Hypotheses الممكنة لحل المشكلة على أن يكون وضع هذه الفروض قائما على أساس منطقى معقول كما ينبغي أن تكون محددة المعنى بحيث يكون إخضاعها للتجريب والقياس ممكنا .

٤- اختبار صحة الفروض أو الحلول أو التتحقق من صحتها وذلك عن طريق ما تمدنا به التجربة أو ما نحصل عليه من معلومات، فيتناول الباحث الفرض فرضا فرضا بالفحص، فإذا أيدت التجربة الفرض أصبح نظرية عامة أو قانونا مقبولا لتفسير وحل المشكلة، وإذا اختلفت نتائج التجربة مع الفرض حذف الفرض أو عدل بحيث يتفق مع نتائج التجربة التي ينبغي أن تكون لها الكلمة الأخيرة في هذه المرحلة بالذات ينبغي أن يتسم فكر الباحث بالمرونة وعدم التشكيك أو التعمق لما يضع من فروض أولية بل يجب أن يكون مستعدا لحذف وتعديل وتغيير جميع فرضيه ووضع غيرها وجدير بالذكر أن المنهج العلمي لا يقوم على التجريب وحده وإنما هو في جوهره يعتمد على التفكير المنطقي السليم وعلى أن يستخدم التجريب كوسيلة للحصول على المعلومات الدقيقة^(١) . على

(١) دكتور عبد الرحمن محمد عيسوى - دراسات سينولوجية - من ص ١٧ إلى ص ٢٤ .

أن هذه المناهج لا تخلي من النقد.

د- المنهج الكيفي في الحقل السيكلوجي

لقد أثار الدكتور على عبد المعطى اعجابي لما قرره من أهمية المنهج الكيفي وعدم تقدس «المناهج الكمية» المتمثلة في الأرقام والأعداد والاحصاءات^(١). وأ Prism صوتي المتواضع إلى ما ذهب إليه د. على عبد المعطى حين أشار إلى انطباق دعوه الفكرية والمنهجية هنا على البحوث والدراسات والمارسات المهنية السيكلوجية، ولكنني أبادر إلى القول بأن ذلك لا يعني اطلاقا هجرة الأساليب الكمية المتمثلة في القياس والتجريب وتقدير الظواهر النفسية تقديرا كميا من خلال تطبيق الاختبارات والمقاييس واستخدام الأجهزة العملية والمقابلات الشخصية المضبوطة أو المقنة والمساحة بالألات من خلال الملاحظة العلمية، ولكنني أقصد أن الأرقام ليست خاتمة المطاف، وأنها ليست مقدسة في ذاتها بل إنها قد تكون معبرة في بعض الحالات عن جوهر الحقيقة وقد تكون مضللة ولا تصف الواقع الفعلي.

ولعل أبسط مثال عملي يؤكد ذلك هو تأثير قيم المتوسطات الحسابية التي يفرض فيها أنها تمثل المجموعة المأخوذة عنها، تتأثر هذه المتوسطات «بالقيمة المتطرفة سابقا وإيجابا» فإذا كان الدخل الشهري لمعظم أفراد مجموعة من الناس «مائة» جنيه مثلا وكان بينهم قلة بسيطة يتتجاوز دخلها «المليون» جنيه، لأصبح المتوسط

(١) انظر (ورقة العمل) في بداية الكتاب .

مرتفعاً جداً بما يخالف الواقع ويغطيه عن عين الباحث، وبالمثل إذا كان لدينا مجموعة معظم أفرادها يتراوح متوسط دخلهم الشهري حول ثلاثة جنيهات وكان من بينهم نفر قليل جداً لا يصل دخله إلى ٥ جنيهات، لأدى ذلك إلى انخفاض قيمة المتوسط الحسابي بما يخالف الواقع، الأرقام إذن ليست مقدسة في ذاتها ، وليس لها معنى محدوداً واحداً في جميع الحالات، إنما هناك أمور نسبة تختص بكل حالة على حدة لابد إذن من استخدام المنهج الكمي، ولكن لابد وأن يسبقه أو يصاحبه أو يتبعه أن يعمل السيكولوجي أو الباحث في مجال علم النفس فكره وحسه وأن يتأمل الأرقام ويعرف مدلولاتها ووظيفتها ومغزاها وفحواها واتجاهها وما ترمز إليه، وأن يقرأ ما بين السطور ولابد كذلك أن يعرف المصدر أو السبب الذي أدى لوجود فروق رقمية أو كمية بين جماعة من الناس وجماعة أخرى ولأنقول أنه يعمل فكره بطريقة ذاتية صرفه وطبيقة حرة وشخصية، بحيث يصبح العمل العلمي بأهوائه وميله وتحيزاته وتعصباته وشطحاته ورغباته الذاتية الصفرة ويغلق الطبيعة التي هي كتاب مفتوح أمام الباحث ويمكن في داره على وصفها وهو لم يبرح مكانه، ولكننا نقول يعمل خبرته المهنية أو الأكاديمية أو النفسية، يعمل بصيرته واستصباره السيكولوجي وفهمه ونوعه للحالة في ضوء خبراته السابقة وفي ضوء ما يحصل به التراث العلمي وفي ضوء ظروف وملابسات وتاريخ حياة الحالة وإذا كنا نؤمن بقول ثورنديك عالم النفس السيكولوجي الأمريكي « بأن كل ما يوجد، يوجد بمقدار، وما يوجد بمقدار يمكن قياسه» وذلك العبارة التي قالها في الرد على مفكري القياس في الأمور المعنوية والذين كانوا يقتصرونه على العلوم الطبيعية، إلا أننا

نقول إن هذه العبارة وإن كانت تبرز القياس الكمي والمضومي، ولكنها لا تنافي إعمال فكر الباحث فيما يحصل عليه من معطيات كمية والنظر إليها في ضوء المفاهيم الكيفية والنسبية، وفي ضوء الخبرة وخاصة الخبرة العلاجية .

وقد كان من نتائج طغيان النزعة الكمية في البحث النفسي أن تحولت ، على القليل نسبة من البحوث النفسية، إلى عمل إلى ميكانيك «حرفي» يتمثل في استجلاب كمية من المعلومات من العقول الإلكترونية ثم تطبيق عدد من المقاييس بصورة آلية ثم دس ما يحصل عليه الباحث في «فم» الكمبيوتر فيحصل على كميات هائلة من الأرقام والمعادلات التي لا يعني معناها في كثير من الأحيان، ولا يحسن توظيفها ولا تفسيرها ولا يعرف حتى كيف جات هذه المعطيات. وساعد ذلك في بعض الأحيان على «فبركة» الأبحاث وأصطناعها وتزييفها ووضع جداول وأرقام من عنده الباحث وهو جالس في بيته دون أن يطالع الواقع الميداني. وغاب بذلك الصدق العلمي والأمانة العلمية والحس السيكولوجي في خضم كميات هائلة من الأرقام العميماء والصماء.. وهذا فيما يتعلق بالبحث السيكولوجي وإذا انتقلنا إلى صورة الممارسة المهنية في العلاج مثلاً أو في التشخيص لوجدنا أن هناك مساحة ضرورية لخبرة المعالج وبصيرته وفهمه واستيعابه للحالة المعروضة وتاريخ المرض والأسرة وما يزال علماء النفس والأطباء يعتمدون على المشاعر والعواطف والأحساس وغيرها من الأمور المعنوية والكيفية .

منهجية علم التفاوض الاجتماعي والسياسي

(رؤيه إمبريقيه)

د. حسن وجيه^(*)

(*) كلية اللغات والترجمة ، جامعة الأزهر

إذا تحدثنا عن المنهجية في ما أسميه بعلم التفاوض الاجتماعي والسياسي فلابد وأن نذكر أولاً أن ظاهرة التفاوض قد ثالت قدرًا لا يأس به من التحليل من منظير علوم اجتماعية عديدة وأهمها علم العلاقات الدولية وعلم الاجتماع السياسي وعلم الأجناس، ولكن من هذه العلوم أدواته ورؤيته المنهجية في تحليل هذه الظاهرة المعقدة ولكن بتطور علم اللغويات وتشعبه وتدخله إلى حد الالتفاف مع علوم اجتماعية أخرى ظهر إلى حيز الوجود العلمي علوم اللغويات الاجتماعية SOCIOLINGUISTICS واللغويات النفسية PSYCHOLINGUISTICS واللغويات العرقية ETHNO LINGUISTICS ولغويات الكمبيوتر/ الحاسوبية COMPUTATIONAL LINGUISTICS التمازجية / التكاملية الحديثة تعلن في جوهرها عن مركبة اللغة ومركبة التحليل اللغوي الامبريقى في السياقات الاجتماعية والنفسية والعرقية والحاںوبية. وإذا كنت تتحدث عن علم التفاوض الاجتماعي والسياسي من خلال رؤية من متظور مركبة علم اللغويات الحديث فلعلى أقدم رؤية تفصيلية لمشروع ومشروعية الالتفاف بين العلوم الاجتماعية لتحليل ظاهرة التفاوض . واعلى أرصد هنا الواقع والحاجة إلى الالتفاف بين علم اللغويات بفرعه التمازجية الحديثة والعلوم السياسية وعلم العلاقات الدولية بوصفه أكثر العلوم اهتماما بدراسة ظاهرة التفاوض ليتشكل من خلال هذا الالتفاف البداية نحو علم تمازجي حديث يمكن تسميتها بعلم اللغويات

السياسية POLITICAL LINGUISTICS وهو ما اقترحه كاتب السطور في رسالته للحصول على درجة الدكتوراه في جامعة جورجستان (سنة ١٩٨٩) ولি�صب بدوره في تشكيل علم التفاوض الاجتماعي والسياسي وتنقسم هذه الدراسة إلى أربع أقسام :

يوضح القسم الأول وجود فجوة على خريطة البحث الأميركي في الحالية في علم العلاقات الدولية وأهمية وجوب ملء هذه الفجوة وارتباط ذلك الوثيق برؤية لفلسفة علم العلاقات الدولية. ويستعرض القسم الثاني بإيجاز البحث الأميركي في علم اللغويات والتعريف برؤية الباحثين في علم اللغويات لقضية البحث الأميركي بصفة عامة وارتباطها بمراحل تطور علم اللغويات وترشيح آخر تطورات تلك النزعية من البحث مثل الفراغ المشار إليه في خريطة أبحاث علم العلاقات الدولية .

وبناء على ذلك يقدم القسم الثالث نموذجاً لتحليل ديناميكيات مطاراتات القدرة في المفاوضات السياسية الدولية مع التركيز على الأسئلة الخاصة بكيفية جمع البيانات (DATA) وإجراءات تحليلها ووحدات التحليل الأساسية وال الحاجة إلى مثل هذا النموذج الذي يقدم أول محاولة للربط بين مفاهيم مدرسة تحليل المطاراتات بعلم اللغويات من ناحية ومفاهيم القدرة في العلوم السياسية وعلم العلاقات الدولية من الناحية الأخرى ثم يقدم القسم الرابع الخاتمة ويحدد كذلك مجالات استخدام النموذج المقترن .

**أولاً : فجوات البحث الحالية في علم العلاقات الدولية والمتضمنة
بالمذهب اللفوي في تحليل المطاراتات السياسية طبقاً لهذه الدراسة
ومدى الصاجة [إليه] على المستوى الامبريري وارتباط ذلك بالفلسفة
العلم:**

إننا إذا ما بحثنا في تعريفات علم العلاقات الدولية لوجدنا أن من
أهم الكلمات التي يتم تداولها في معظم التعريفات الخاصة بهذا
العلم ومقاصده الأساسية هي كلمات التفاعلات "Interactions"
وأنماط التفاعلات "Patterns of Interactions" وعملية التفاعلات
"Process of Interaction" ، الخ (انظر على سبيل المثال) هولستي
Holsti ١٩٨٨، آرون Aron ١٩٦٦، دوتش Dutsch ١٩٧٨
فالعلاقات الدولية في واقعها الحقيقي ماهي إلا سوى تفاعلات بين
الدول على كافة المستويات.. وللتفة في هذا السياق هي وسيلة
التفكير والتخطيط والتنفيذ المتعلق بذلك التفاعلات وسياقاتها المختلفة
ومع ذلك فقد كان دائماً النظر إلى أمر اللغة على أنها أوتوماتيكية
ولم يتطرق إليها البحث بالتمعق المطلوب الذي يواكب دورها المركزي
والتعقيدات المصاحبة للأداء اللفوي في سياق هذه التفاعلات الدولية
وما يمثل فجوة بحثية على خريطة أبحاث كل من العلوم السياسية
وعلم العلاقات الدولية حيث لا يوجد سوى أعمال قليلة جداً من قبل
علماء السياسة التي تناولت أمر علاقة اللغة بالمارسة السياسية ومن
أمثلة هذه الأعمال كتاب مايكل شابيررو "Shapiro" "اللغة والفهم
السياسي" ١٩٨١ وأيدمان Edelman "مجموعة كتب السياسية"

كالفعالية قرئية ١٩٧١، اللغة السياسية: الكلمات التي تتجه
والسياسات التي تفشل ١٩٧٧ ومن أحدث أعماله في هذا الصدد :
العلاقة بين اللغة سياسية في السياسة الحقيقة ١٩٨٥. إن هذه
الأعمال والتي تعبّر عن توجهات علماء السياسة في هذا الصدد
نزعـت في استعراضها وتطورها لموضوع تحليل اللغة في السياق
السياسي إلى الجانب التنظيري ولم تعالج هذا الموضوع أمبيريقيا ..
كذلك ركزت هذه الدراسات على دور محدود للغة في السياق
السياسي وعلى مناقشة الأمثلة اللغوية التي لم تتعد مستوى الكلمات
والتعابيرات (Word & phrasal levels) وبالتالي يمكننا أن
نصف معالجة علماء السياسة لهذا الموضوع بأنها معالجة استاتيكية

والمجدير بالذكر في هذا السياق أيضاً ما عرف بمدرسة تحليل
الخطاب السياسي وأهم أعلام هذه المدرسة الفيلسوف الفرنسي
ميشيل فوكو ١٩٦٧ "Michael Foucault" وبدوره
"Rorty" الذين يقترحون دراسة الأيديولوجية من خلال تحليل
الخطاب السياسي. وفي العالم العربي نجد أن أهم الأعمال التي
مثلت هذه المدرسة كتب الفيلسوف المغربي محمد عابد الجابري
تحليل الخطاب العربي المعاصر (١٩٨٥) ، وتكون العقل العربي
(١٩٨٤) وبنية العقل العربي (١٩٨٦) .

إلا أن هذه الدراسة هي الأخرى في واقعها مدرسة فلسفية تتخذ
من علم الفلسفة منطلقاً أساساً للنظر إلى دور اللغة في سياق

النصوص السياسية وهي بعيدة كل البعد عن البحث الأميركي، ولقد وصف السيد يسین كتابات الجابری كأحد المثلثين لهذه المدرسة في سياق تعرضه لها بالتحليل في مقالته «بحثاً عن هوية جديدة للعلوم الاجتماعية في الوطن العربي - الخطاب والأصولية المنهجية والاستراتيجية»، قائلاً :

«إن الجابری حين درس الخطاب العربي المعاصر قد ركز انتباهه على التناقضات بين الخطابات المختلفة ونادرًا ما أشار إلى الممارسة وكان اهتمامه بمعقياس عدم التناسق الداخلي أكثر من اهتمامه بتقويم التجربة المعيشية.. وأن الجدل بين الفكر والواقع والذى يعد أساسيا في علم الاجتماع المعرفة، يغيب كلياً عن تحليلاته».

إن ما نستخلصه مما ذكرنا يقودنا إلى القول بأن أمر التحليل اللغوي في السياق السياسي على مستوى العالم الغربي والعالم العربي، لايزال يكتفه القصور الشديد، كذلك فإن التحليل اللغوي في سياق التفاعلات الدولي المستمد من البحث الأميركي المستمد من دراسات ومفاهيم مدارس تحليل ديناميكيات أساليب التناول والتفاعلات طبقاً لعلم اللغويات الحديث أمراً غير موجود ويمثل فجوة كبيرة وواضحة بجدلية أبحاث العلاقات الدولية. إن أهمية الاستعارة بمثل هذه النورمية من التحليل تكمن في معالجتها لأمر التفاعل الديناميكي داخل الثقافة الواحدة وعبر الثقافات مما يؤهل استخدامها في تحليل جلسات المفاوضات والمواجهات الإعلامية من مناظرات وحملات دعائية أو حملات المعلومات والحملات المضادة إلى

غير ذلك من أمور إدارة الصراع ومحاولات حله أو تعقيده والتي تتسم بتركيبة ديناميكية معقدة.

إن أهمية وجوب استخدام المنهج اللغوي طبقاً لهذه الدراسة لتحليل ديناميكيات التفاعلات يستمد شرعية خاصة من خلال آراء العديد من علماء السياسة وال العلاقات الدولية من نوى الحساسية الخاصة لمركزية اللغة في سياق التحليل السياسي وكذلك من خلال ارتباط ذلك بأمور حيوية تتعلق بفلسفة العلوم السياسية وعلم العلاقات الدولية .

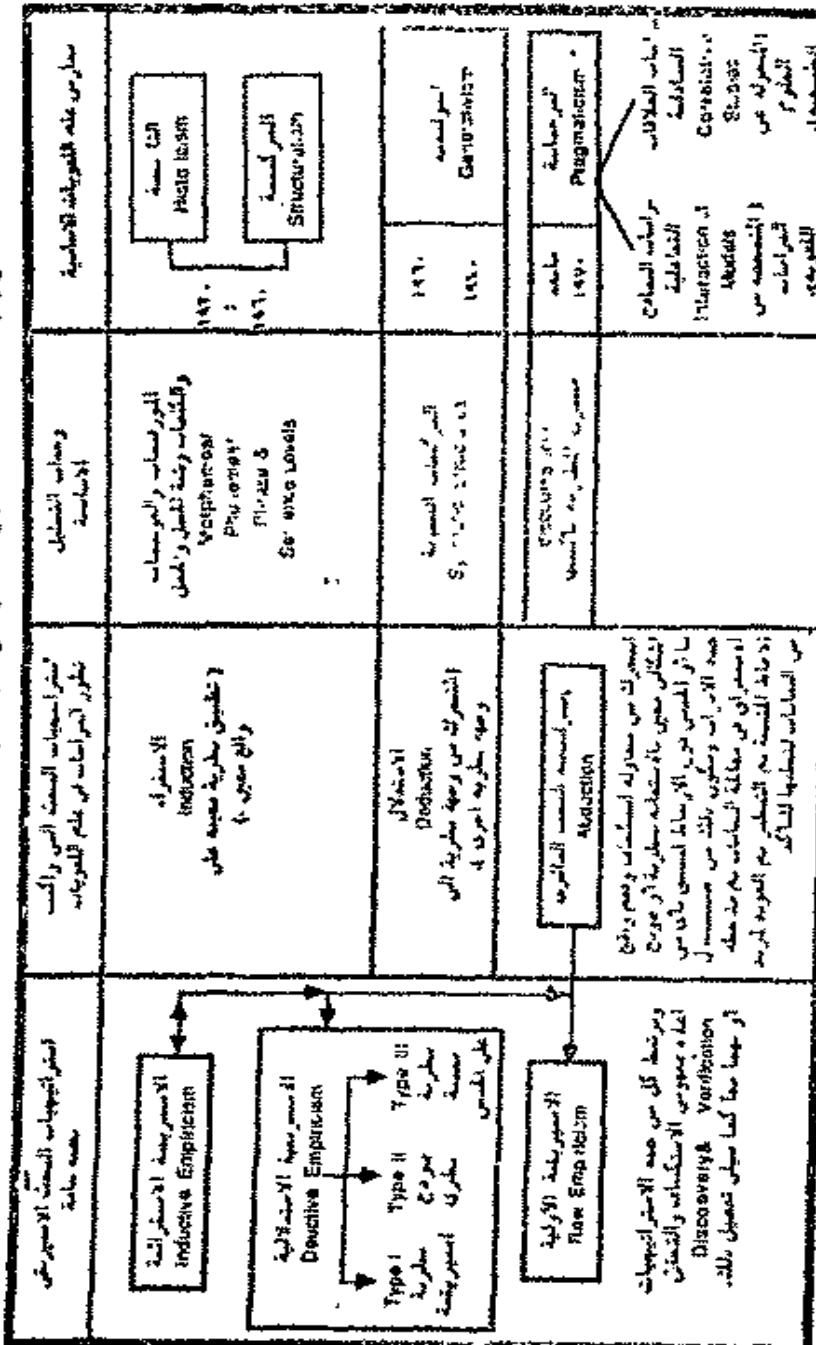
ومن هنا تنشأ الحاجة إلى استخدام المنهج اللغوي الحديث في تحليل المطاراتات السياسية والذي سوف نعرض له تفصيلاً في القسمين الثاني والثالث من هذه الدراسة .

ثانياً، استعراض لتطورات توجهات البحث الاميريقي في علم اللغويات :

لاشك أن هناك العديد من المسميات المتعلقة بمفاهيم البحث الاميريقي والتي تحتاج إلى توسيع حيث أن هذه المسميات في كثير من الأحيان تكون موضع اختلاف بين الباحثين في علوم اللغويات أو العلوم السياسية والعلوم الاجتماعية الأخرى أو محل خلاف بين الباحثين في أحد هذه المجالات .

ولقد وجد الباحث أهمية توسيع المقصود بهذه المسميات من خلال محاولة وضعها في الشكل الشمولي التالي والذي سوف يتم شرح مكوناته بقدر من التفصيل .

لذلك (١) يقتضي ذلك دلائل أخرى تؤكّد المقدمة والافتراضات التي أشرفت على إثبات المقدمة.



وفيما يلى وصف لعناصر الشكل رقم (١) :

(أ) المدرسة التاريخية (Historicism) :

و بهذه المدرسة تمثل أولى مراحل دراسة ظاهرة اللغة بطريقة علمية وقد مهدت هذه المدرسة لظهور المدرسة الثانية (التركيبية) وكان من رواد المدرسة التاريخية عالم اللغويات أوتو جيسبرسن (otto Jaspersen) الذي ذكر في كتابه المهم اللغة، طبيعتها، تطورها وأصلها (١٩٢٢) أن الصفة الرئيسية المميزة للغة كظاهرة هي الصفة التاريخية وهذه الصفة تمكن الباحث من تعقب تاريخ اللغات ليوضح أسباب وعوامل استمرارها، تطورها أو انقطاعها وموتها وكذلك تأثيراتها المتبادلة مع اللغات الأخرى، وهذا التوجيه يتبع لنا تفسير لماذا اللغة هي كما هي عليه الآن؟

(ب) المدرسة التركيبية (Structuralism) :

جاءت هذه المدرسة للوجود كرد فعل للمدرسة التاريخية وكان من روادها بلومفيلد "Blomfield" ودى سوسير "de Saussure" والذين ذهبوا إلى القول بأن وصف اللغة ليس من الضرورة أن يكون تاريجيا (Diachronic) (رأسيا) إنما يجب أن يكون وصفها في الأساس حالى (متزامن) synchronic (عرضيا) وهنا يكون الوصف تركيبى Structural قبل أن يكون سببى (causal) كما في المدرسة التاريخية، وهذا التوجيه يتبع أيضا معالجة السؤال السابق وهو لماذا اللغة هي كما هي عليه الآن؟ فهذه المدرسة تعنى بالوصف التركيبى للغة ما وعلاقته ذلك بمقاهيم العالمية والشخصية الثقافية

. (Universalism & Relativism)

هذا ولا تتذكر هذه المدرسة صلamicة المدرسة التاريخية والتي
ما زالت قائمة إلى الآن فيما يعرف بفرع علم اللغويات التاريخية
historical linguistics

(لمزيد من التفصيل انظر ليونز Lyons، ١٩٨١).

ولقد تأثرت هذه المدرسة (التركيبيّة) بالمدرسة السلوكيّة
(Behavioral School) وركزت في معرض تطورها على التوجّه
الكمي الاستقرائي (quantitative inductive approach) الذي
يبداً بمعلاجنة وتحليل البيانات (DATA) ثم تكون الافتراضية
فالنظريّة.. وكان ذلك بتحليل كم كبير من البيانات وعلى مستوى
وحدات لغوية أساسية صغيّرة مثل الفونيمات (phonemes)
(أصغر وحدة صوتية).. والمورفيمات (Morphemes) (أصغر
وحدة صرفيّة) كذلك شهد المجال أسلوباً يماثل الأساليب المتبعة في
العلوم الطبيعيّة من خلال النراسات الكمية الاحصائيّة وكتابـة
القوانين والمعادلات وما إلى ذلك. وشاعت في ذلك الوقت دراسات
مقارنات الأنظمة النحوية والصرفية للغات العالم المختلفة بفرع تعلم
اللغات وتقانها في أسرع وقت خاصـة أثناء فترة الحرب العالميـة
الثانية. ولمزيد من التفصيل بخصوص دراسات التحليل المقارن
(Contrastive analyses) انظر لادو (Lado) (١٩٥٧، ١٩٦٤) - لقد كان مفهوم الباحثين في علم اللغويات في هذه الفترة
يذهب إلى مساواة مفهوم الامبريقـية (Empiricism) بمفهوم العلم

(Science) من منطلق أن الحقائق المحسوسة والملموسة والمرئية من خلال تحليل البيانات هي فقط التي تمثل المنهج العلمي للدراسة اللغة إلى أن قدم توم شومسكي في مستهل السبعينيات تقنياً لهذه المدرسة (التركيبية) السائدة وقدم نظريته الخاصة والتي عرفت بالنظرية النحوية التوليدية التحويلية عام ١٩٦٥ (Transfoemational Generative Syntax).

(ج) المدرسة التوليدية (Generativism or innatism)

لقد أحدثت نظرية شومسكي في عالم اللغويات تغييراً جذرياً تجاه البحث الاميريقي فنظرته استدلالية (Deductive) بدلًا من أن تكون استقرائية (Inductine) كسابقتها وهذا يفيد بأن الافتراضات والنظريات ليس من الشرط أن تكون نتيجة تحليل البيانات ولكن من خيال العالم ثم تأتي بعد ذلك اختبارات هذه الافتراضات والنظريات. فمدرسة شومسكي تذهب إلى القول بأن البدء بتحليل كم كبير من البيانات كما في الطريقة الاستقرائية ليس هو الأمر الذي يجعل المجال علمياً أم لا (sine qua non) وبذلك فإنه في الوقت الذي يدعونا فيه التوجه الاميريقي إلى أن أراؤنا قد تكون خاطئة وليس علينا إلا نثبتها بالدليل.. أي نبدأ من منطلق التعبير الذي يقول «قد أكون مخطئاً» (I may be wrong) المذهب العقلاني (أو منذهب المنطق المقبول mentalism or rationalism) الذي عبرت عنه مدرسة توم شومسكي فهو يبدأ بالتعبير القائل «أنا أعرف الحقيقة،» "I know the Truth" حيث

أنه لا توجد في بعض الفظواهر اللغوية تلك النعمة التي يقال عنها «إنها ملموسة» وتعلق بعمليات ذهنية معقدة تسبب عملية الانتاج اللغوي .

وأقد سادت مدرسة توم تشومسكي إلى أواخر السبعينيات وأحدثت جدلاً كبيراً ولكنها في نفس الوقت أحدثت ثورة في علم اللغويات وأوضحت بشكل أتسم بالتعقيد والدقة العلمية العلاقة بين النطاق الإدراكي واللغة وذهب إلى القول بأن دراسة اللغة هي دراسة العقل الإنساني، ولزيادة من التفصيل أرجع إلى كتاب تشومسكي العقل واللغة (١٩٦٨) ولقد كان من أهم ما تركته نظرية تشومسكي من أمور حيوية لم يوضحها البحث «الأميريقي» الذي كان سائداً قبلها الآتي :

(أ) إن اللغة أكثر من مستوى تركيبى وأن هناك مستوى سطحي (Surface structure) وأخر عميق (Deep structure) وأن العلاقة بين المستويين تتسم بدرجات مختلفة من التعقيد ولقد أوضحت النظرية قواعد الربط بين المستويين بدقة وصرامة علمية كبيرة .
(ب) أن هناك قواعد للتحويل من تركيب لآخر .

(ج) أن معرفة القواعد تختلف عن عملية استخدامها وهذا ما أوضحته النظرية من خلال تعريفها «الكفاءة» و«الأداء» (Competence & performance) وأن اهتمام البحث اللغوى يجب أن يرتكز فقط على «الكفاءة» لوضع تصور علمي مثالي يصف أنظمة القواعد على مستوى لغات العالم (الأمر الذي كان محل

نقد شديد من قبل المدرسة الرئيسية الثالثة التي سوف يلي ذكرها والتي ترکز على مفهوم «الاداء» في المقام الأول).

(د) إن الإنتاج اللغوي والإبداعية في استخدامات اللغة تحكم قواعد أوضحتها النظرية.

لقد كان لهذه النظرية آثار كبيرة على فكر الباحثين اللغويين إلى الان وتمضي عندها نظريات أخرى ولكنها ظلت تحت إطاراتها العام. كذلك فقد تأثرت بهذه النظرية عدة أنظمة أكاديمية أخرى على سبيل المثال مجال «الذكاء الصناعي» (Artificial Intelligence) في علم الكمبيوتر، وكذلك تأثرت بهذه النظرية الدراسات المتخصصة عن العلم الازدواجي المعروف بعلم اللغويات السيميولوجية (psycholinguistics) خاصة تلك الدراسات التي ركزت على موضوع اكتساب اللغة (Language Acquisition).

ثم جاءت الفترة الرئيسية الثالثة، والتي نحن بصددها الان، في تطور المنهجية في علم اللغويات لتشهد توجه مضاد ينتقل بعلم اللغويات من الإطار الذي وضعه تشونمسكي والذي يركز في تحليله على التركيبات التحورية أساسا "syntactic structures" ومن منطلق «استدلالي» إلى إطار معالجة مستويات أكبر تعالج مستويات اللغة الكامنة والظاهرة والمختلفة معاً من تركيبات معانى "Syntactic level" وتركيبات فونولوجية (صوتية وظيفية من نبرات صوات إلى آخر). وتركيبات فونولوجية "phonological level" منتقلة بذلك نحو معالجة أكبر في

نطاق معالجاتها تصل إلى مستوى المطارحة بالكامل (Discourse level) من هنا اختلف تحليل المطاراتحات (discourse analysis) عن تحليل المضمون (content analysis) الذي يعالج «المحتوى الظاهر للاتصال فقط من خلال وصفه وصفاً موضوعياً منتظماً وكيفياً» (برلسون ١٩٥٢).

وكان هذا معناه التعامل مع وحدات لغوية أكبر من الجمل والفقرات ولقد شاهد علم اللغويات دراسات تراكمية كبيرة منذ السبعينيات إلى الآن في إطار هذه المدرسة الرئيسية الثالثة والتي قد يطلق عليها المدرسة البرجماتية (pragmatism) كذلك ظلت إلى الآن توجهات المدرستين السابقتين قائمة.

ولقد بدأت تظهر توجهات مختلفة في إطار الثالثة إلا أن هذه التوجهات قد أجمعوا على نقد المدرستين السابقتين وكان من أعلام هذه المدرسة الثالثة والتي اهتمت بتحليل الواقع المطاراتحات ولیام لايف (Roger Shuy)، كمبرز (Labov)، غومبرتز (Gumperz)، شيف (Chafe)، وتنهن (Tannen).

ولقد جمعت هذه المدرسة بين الاستراتيجية الاستقرائية والاستدلالية (Induction & deduction) فيما عرف بالاستراتيجية الدائرية "Abduction approach".

ومنطلق بهذه البحث طبقاً لهذا المنهج هو تجنب الأمثلة الموضوعة أو المقتصورة وهو ما قد يسمى بأمثلة الكرسي الهزاز (Rocking chair examples).

القول» (Speech Acts) في سياق المقابلات العلاجية (therapeutic interviews) بين الأطباء والمرضى، وكانت نتائج هذا التحليل هامة فيما يتعلق بتركيبية ووظائف «أثر أفعال القول» وطرق تحليل هذه الوحدات والسبب يرجع إلى تحليل هذه الوحدات في سياق طبيعي وحقيقي وليس من خلال الأمثلة المتصورة. فلم يبدأ لابن فرانثـيل (على سبيل المثال) بذكرة أن معلوماتنا عن نظرية «أثر أفعال القول» (Speech act theory) قد تتقدم من خلال فحص وتحليل الاستخدام الحقيقي (الطبيعي) للغة ولكنها قد بدمـا بالمشكلة الخاصة بكيفية إسهام عملية التحليل اللغوي في فهم أعمق لطبيعة المقابلة العلاجية بين الأطباء والمرضى. إن هذا التوجه الدائري لقرب الصلة بمفهوم التركيبية الاجتماعية (Abduction) (Social constructivism) الذي يستند بصورة على أن الأشياء (objects) لا توجد فقط في العقل (innatism) أو في العالم (Empiricism) ولكنها على العكس من ذلك تتكون من خلال الأفعال المتمدة للوعي، أي أن العملية تراكمية وهي لا تتركز في الفرد كما كان شأنها ولكن هذه العملية تتركز في تركيبة التفاعل الاجتماعي أساساً والتي يجب أن يدرس من خلال تفاعل الناس وليس من خلال الأمثلة المتصورة من عقل الإنسان (انظر توميك وشـاي، ١٩٨٧، Tomic & Shuy، ١٩٨٢، Mehane، ١٩٨٢).

إن من أهم منطلقات هذه المدرسة اذن هو المحاولة العملية

للحظة وتحليل ظواهر الأداء اللغوي في السياقات المختلفة دون الارتباط المسبق بنظرية أو طريقة تحليل بعينها خاصة تلك الأساليب المستمدة من العلوم الطبيعية كما هو سائد في الكثير من دراسات العلوم الاجتماعية بما فيها اللغويات وذلك من منطلق أن البحث العلمي عملية التنظير الخاصة بالعلوم الاجتماعية وعلى وجه الخصوص المتعلقة بتحليل الأداء اللغوي تحتاج إلى السيطرة على عوامل أصعب وأعقد من العوامل التي تتم السيطرة عليها معملياً في العلوم الطبيعية وكذلك الوضع فيما يتعلق بایجاد فهم أعمق لاشكاليات الواقع .

و قبل أن تنتقل هذه الدراسة إلى جزئها الثالث تستعرض هنا الجزء الأخير من الشكل رقم (١) والخاص بالمفاهيم الخاصة بالبحث الامبريقي والمتدوالة في العلوم السياسية والعلوم الاجتماعية الأخرى الامبريقيه الاستدلالية، والأموريقيه الأولية، والأموريقيه الاستقرائية كما تفهم من بيرلسون وجاري Berlson & Gary ١٩٦٤، وفلبيون ١٩٦٩ .

(أ) الاموريقيه الاستدلالية : Deductive Empiricism

وهذه الاستراتيجية عبارة عن مجموعة من الافتراضيات المستمدۃ من مجموعة متداخلة من النظريات، ومقد التتحقق من هذه الافتراضيات يتم التتحقق من تلك النظريات التي استمدت منها (وبایجاز فالامر يتلخص من الحركة من تبني موقف نظري ما إلى تبني موقف نظري آخر) .

وهي ثلاثة أنواع :

النوع الأول : نظرية أمبيريقية (Empirical theory) (تستخدم في سياق الاستكشاف والتحقق) .

النوع الثاني : نموذج نظري (Theoretical Model) مثل نظرية (Game theory) المباراة .

النوع الثالث : نظرية مستمدّة بطريقة أو باخرى من الحدس والتصور البديهي .

والنوع الثاني والثالث يستخدمان في سياق الاستكشاف فقط مثهما في ذلك مثل «الامبيريقية الأولية»، التالي ذكرها .

(ب) الامبيريقية الأولية (Raw Empiricism) :

ويستخدم هذه الاستراتيجية في البحث الذي لا يوجد له سوى القليل جداً من الأدبيات وكذلك افتراضيات القليلة الفاصلة بموضوع البحث .

ويتعامل الباحث في هذا السياق (The RawEmpircist) مع البيانات (Data) دون أن يتعامل بعمق مع عملية تكوين افتراضيات من الممكن التحقق منها عن طريق استدلالها من مجموعة النظريات المصغيرة (Theorems) أو الفروض النظرية المتداخلة (Interrelated postulates) ولكن على العكس من ذلك فإنه «يفرق نفسه في البيانات» أي يتعامل معها بالطريقة التي يريد لها وبكلافية ليحدد ما هي خطوط الاتساق (Regularities) التي سوف تظهر من جراء هذا النشاط ليرى ماهي التعميمات التي من

الممكن تكوينها عقب ذلك، وتستخدم هذه الاستراتيجية في مجال الاستكشاف فقط .

(ج) الاستراتيجية الاميريقية الاستقرائية Emiricism

وهذه الاستراتيجية تحتل الموضع الوسط بين الاستراتيجيتين السابقتين وعادة ما تستخدم في الأبحاث التي تتعرض لوجود نظريات متصارعة والغرض منها هو اختبار نصوص من هذه النظريات عن طريق تحليل البيانات (Data) والرسول إلى بيان متسلق بشأن نقاط التصاريح لمحاولة الاستفادة من هذه النظريات بطريقة متسقة ودون تناقض .

وتستخدم هذه الاستراتيجية في مجال التتحقق فقط
(Verification)

وقرار الباحث لاستخدام أي استراتيجية من الاستراتيجيات السابقة الذكر مررهن باعتبار مشكلة البحث وتوافر الأدبيات والأبحاث السابقة فيما يتعلق بموضوع البحث من عدم توافرها وكذلك بتوافر البيانات من عدمها ولزيد من التفصيل أنظر فليرون Fleron وبيرسون وجاري Gary (١٩٦٤) .

ثالثاً: النموذج المقترن لتحليل ديناميكيات مطارحات «القدرة» في المفاوضات السياسية الدولية :

إن الهدف من بناء النموذج النظري المقترن هو تحليل الديناميكيات «القدرة» في المفاوضات السياسية الدولية وتقديم

تصنيفًا تحليلياً لها (Taxonomic Analysis). ولقد تبنى الباحث أولاً استراتيجية الامبريقية الاستدلالية (Deductive Empiricism) وهي خاصة بالتنقل من موقف اجراءات) ثم تبني الباحث استراتيجية الامبريقية الأولية Raw Empiricism في تعامله مع البيانات بغرض استكشاف وفهم طبيعة ديناميكيات واستراتيجيات القدرة في التفاوض مستعيناً في ذلك بالنظريات والأنواع المناسبة للتعامل مع البيانات لتكوين افتراضيات البحث .

ثم تبني بعد ذلك الباحث الاستراتيجية الامبريقية الاستقرائية Inductive Empiricism لتحليل البيانات للتحقق من الافتراضيات وكذلك لحل أي تناقض يبديه بين المكونات النظرية التي استخدمت في البحث .

إن انتهاج هذه الاستراتيجيات بهدف فهم طبيعة موضوع البحث والتحقق من نتائجه والتنقل من الاستدلال والاستقراء في شكل دائري هو ما امطلع على تسميته في علم اللغويات باستراتيجية البحث الدائيرية Abduction.

وقد استند نموذج التحليل إلى افتراضيتين أساسيتين :

(١) افتراضية ازدواجية تنص على أن الباحثين يستطيعون تقديم فهم أعمق وأفضل لمفهوم «القدرة» Power كمفهوم ديناميكي واستكشاف ديناميكيات المطاراتات المتعلقة به في سياق المفاوضات السياسية الدولية من خلال تحليل هذا المفهوم من منظور علم اللغويات - العلوم السياسية - وعلم العلاقات الدولية .

(٢) افتراضية لغوية خاصة بتحليل المطاراتات Discourse Analysis تنص على وجود علاقة تداخلية بين المفاهيم اللغوية التالية :

- (أ) أثر فحيل القول (Speech act) من زاوية الأثر المتعارف عليه والمراد إيمانه لمستقبل الرسائل (Illocutionary Force of Utterances) ومن زاوية الأثر الفعلي الذي أحدث فعل القول على المستقبل له (Perlocutionary effect)
- (ب) مفهوم «التحركات» (Moves) الاستراتيجية منها والتكتيكية .
- (ج) مفهوم «الموضوع» (Topic) من زاوية جدول الموضوعات (Topic agenda) والموضوعات الناتجة عن التفاعلات (Interactional Topics)

وتنص هذه الافتراضية اللغوية على أن هذه المفاهيم الثلاثة بالأبعاد المشار إليها ترتبط ارتباطاً وثيقاً ببعضها البعض وتمثل ما أسماه الباحث بـ «عنقود التفاوض اللغوي» (Linguistic Negotiation Cluster) والذي يتبع النظر إلى تلك العناصر المشار إليها أنها مجتمعة لاوصول إلى نزيمة أو قرارة متسقة وراسخة لكييفية استخدام هذه العناصر، من قبل المفاوضين لتحقيق الأهداف التعاونية المختلفة مثل : التعهد - إيجاز، البدائل - أو سد الطريق لها، تحقيق التوازن - التأجيز - التأكير والتهديد... إلى آخره من مفاهيم تفاوضية.. كذلك فإن البحث يوضح أن عناصر هذا «العنقود» تمثل كل منها وسيلة للتتأكد من صلاحية تحايل كل من ذكر من هذه العناصر . (Verifivational devices)

(٢) إن هناك خصائص عالمية في استراتيجيات التفاوض وأخرى مرتبطة بالخصوصية الثقافية .

وصف النموذج المقترن :

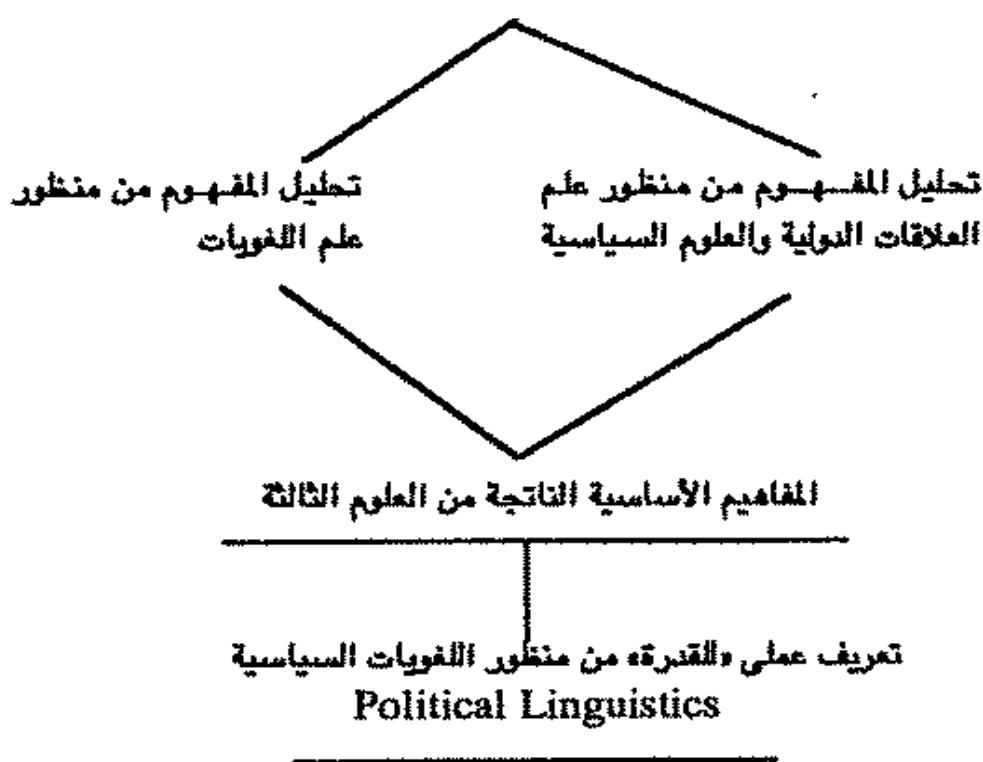
(١) المكون النظري :

يوضح الشكل التالي وصف للمكون النظري حيث يتم تحليل مفهوم القدرة من منظور علم اللغويات وعلم العلاقات الدولية والعلوم السياسية.

شكل (١)

المكون النظري

تحليل مفهوم «القدرة»



وتقديم تعريف علمي له "operational definition" ويستمد هذا التعريف عناصره من التعريفات الشائعة في علم اللغويات لمفهوم «كفاءة الاتصال» "communicative competence" والذي تم ربطه بتعريف دول "Dahl" الشائع لمفهوم القدرة في العلوم السياسية، وهو قدرة الطرف «المقاوض» (أ) أن يحقق أهدافه التفاوضية من خلال تعامله مع الطرف «المقاوض».

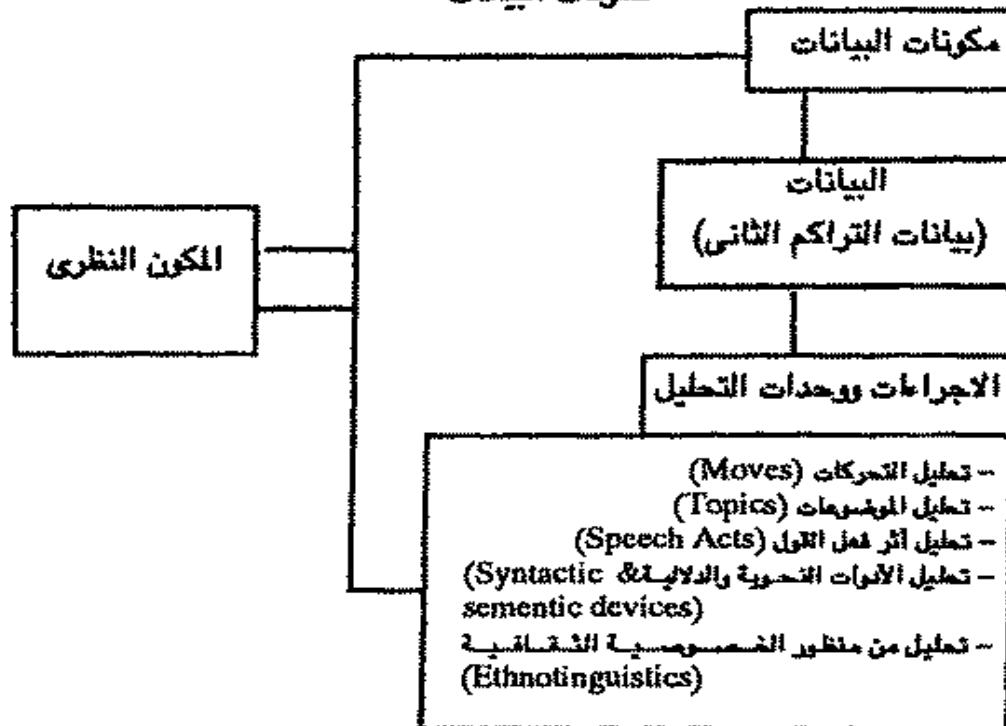
(ب) . (أنظر دول ٨٠: ١٩٦٩) .

(ب) وصف مكون تحليل البيانات:

ويرتبط مكون تحليل البيانات بالكون النظري لتوضيح علاقة التنظير بتحليل البيانات جيئة وذهابا كما يوضح ذلك الشكل (رقم ٢).

الشكل رقم (٢)

مكونات البيانات



وفيما يتعلق بمعنى البيانات تلقى الضوء على:

(١) وصف البيانات والمصادرات التي قابلت الباحث..

(٢) الاجراءات ووحدات التحليل الأساسية..

(١) وصف البيانات والصعوبات التي قابلت الباحث وكيف تم حلها:

رأى الباحث أهمية تحليل ديناميكيات مطارحات القدرة من خلال تحليل مواقف تفاوضية مثلت أداء المفاوضين الذين أثروا استراتيجيات تفاوضهم على مصائر اتجاهات أهم الصراعات التي شهدتها العالم منذ الخمسينيات إلى يومنا هذا (مثل السادات، كيسنجر، نيكسون، عبد الناصر، الجنرال جياب الفيتنامي.. الخ) كذلك اشتمل بذك البيانات الخاص بهذه البحث على شخصيات إعلامية بارزة مثل تيد كوبيل "Ted Koppel" معد و يقدم البرنامج الاخباري الليلي بمجموعة A.B.C بالتليفزيون الأمريكي والذي يقوم فيه بإدارة اللقاء مع الشخصيات السياسية العالمية.. جين كيركباتريك Jean kirkpatrick أستاذ العلوم السياسية وسفيرة الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة لوقت طويلا.. المذيع الأمريكي سام دونالدسون (Sam Donaldson) والمذيعة الأمريكية بابرا والترز (Barbra Walters) والمصفحة الإيطالية فلاشى (Fallaci)- الكاتب والمصحفى العربى محمد حسنين هيكل - وشخصيات رسمية إعلامية وأكاديمية أمريكية ومصرية .

لقد كان من الصعبية البالغة بطبعه الحال الحصول على

نصوص المواقف التفاوضية كلها من خلال تسجيلات حية كما هي العادة في أبحاث مدارس المطاراتحات بعلم اللغويات حيث يتمكن الباحثون عادة من الحصول على تلك التسجيلات آلية (Naturally occurring Data) ومطاراتحات الأطباء (والمرضى والطلاب) والأساتذة، والمحادثات في السياق الاجتماعي العادي وربما لهذا السبب لم توجد بعد دراسات من علم اللغويات تعالج أمر المطاراتحات السياسية ولكن بسبب اهتمام الباحث بهذا الموضوع فقد رأى أن يقدم ما أسماه ببيانات الترال الثاني (Track two Diplomacy Data) والتي عرفها بأنها تتتصف بكونها قد سبق الإعداد لها بصورة أو بأخرى... أي أنها ليست تسجيلات حية بالمعنى الذي يقصده الباحثون في علم اللغويات ولكنها عبارة عن مواقف تفاوضية من خلال البرامج الإذاعية السياسية مثل المقابلات (Interviews) وذلك المسجلة في كتب السيرة الذاتية (Autobiographical Discourse) والخطابات (Speeches) والندوات السياسية (Symposia). وقد وجد الباحث أن هذه النوعية من البيانات مناسبة إلى أبعد حد لدراسة موضوع البحث وذلك لكونها تتتصف بالصفات التالية :

- * إنها كلها تمثل وسائل يمكن من خلالها تحديد استراتيجيات المتفاوضين كذلك فإنها تعبر عن قناة حقيقة يستخدمها القائمون على إدارة الصراعات .
- * إن المقابلات في تركيبها ومعظم أحوالها قريبة إلى التسجيلات

الحياة بالمعنى الذي يقصده الباحثون في علم اللغويات وكذلك الأمر في التدوين .

* إن المواقف التفاوضية كما هي موجودة في كتب السيرة الذاتية تمثل نوعية خاصة من البيانات الغنية للغاية للتحليل والتعرف على الاستراتيجيات التفاوضية المختلفة فهنا يسجل مفاوض ما رؤيته موقف تفاوضي ما وكذلك رؤية الآخرين لنفس الموقف كما رأها هو، وكثيراً جداً ما يقدم المفاوضون نصاً لما حدث ومن غير المعروف أن يكون هذا النص مسجل لديهم أم هو مكتوب من الذاكرة.. وفي كلتا الحالتين فالمادة خصبة لتحليلها.. خاصة إذا ما تمت مقارنة نصوص نفس المواقف التفاوضية من خلال ما ذكره أكثر من مفاوض اشتراكوا في نفس المفاوضات الحقيقة على سبيل المثال لا الحصر انظر إلى كتب السيرة الذاتية .

لما حدث في أزمة أكتوبر ١٩٧٣ لتجد أن معظم من اشتراكوا في إدارة الصراع في ذلك الوقت قد سجله في سيرهم الذاتية، (انظر السادات ١٩٧٧، كيسنجر ١٩٨٢، اسماعيل فهمي ١٩٨٥) وذلك على سبيل المثال لا الحصر .

ولقد تم تحليل المواقف التفاوضية التالية من تلك البيانات الخاصة بهذا البحث :

* مواقف تفاوضية من كتب السيرة الذاتية : (السادات ١٩٧٧ كيسنجر ١٩٨٢، اسماعيل فهمي ١٩٨٥) .

* مواقف تفاوضية من المقابلات (تيد كوبيل، فلاشى، والترز،

دونالدسون) مع الشخصيات الآتية :

- مناحم بييجن ، السادات، جين كرييك باتريك، آيات الله الغميّني، الجنرال جياب.. الخ .

* مواقف تفاوضية من وثائق (نص الإنذار النهائي لمصر عام ١٩٥٦ وخطاب عبد الناصر من الأزهر للرد عليه .

* وقائع تحقيق سياسي أمام المدعى الاشتراكي (محمد حسنين هيكل) ١٩٨٣ .

* بيانات مسجلة (تسجيل حي - ندوات - محادثات على المستوى الاجتماعي، كبيانات تدعيمية (Back up data)) .

ولقد وجد بين هذه النوعيات من البيانات هو تعريف الموقف التفاوضي على أنه ذلك الموقف الذي يبدأ في تفاعل طرفان «أو أكثر»، وتصارع فيه قائمة الموضوعات (Topic agenda) الخامسة بهما «بهم» ومحاولة كل طرف تحقيق أغراضه من عملية التفاوض .

ويستعرض الموقف التفاوضية في هذا البحث تلك التي حدث أثناء احتمام الأزمات والأخرى التي حدثت في أوقات غير أوقات الأزمات .

(٢) الإجراءات ووحدات التحليل الأساسية :

* تحديد وتعريف النمط الرئيسي لنوعية ديناميكيات «القدرة» في الموقف التفاوضي محل الدراسة .

* عرض الخلفية الخاصة بهذا الموقف التفاوضي وذلك من خلال توضيح السياق الشعوي لموضوع التفاوضي محل الدراسة .

* عرض الخلفية الخاصة بهذا الموقف التفاوضي وذلك من خلال توسيع السياق الشمولي لموضوع التفاوض .

* تقديم نص الموقف التفاوضي .

* تقديم تحليل للموقف التفاوضي من الناحيتين الوظيفية (functional) والتركيبية (structural) وذلك بتحليل :

Move Analysis التحركات

Topic Analysis الموضوعات

speech Act Analysis اثر افعال القول

Semantic & syntactic devices الادوات النحوية والدلالية

* تطبيق الموقف التفاوضي ذاته مرة أخرى من منظور

Cross cultural communication الاتصال عبر الثقافات (or Ethnolinguistics)

لتحديد مصادر وأسباب سوء التفاهم (إن وجد) أثناء الاداء

اللغوي والذى قد ينبع بسبب استخدام تركيبات لغوية ثقافية خاصة.

رابعاً : الخاتمة ومجالات استخدام النموذج المقترن :

تؤكد هذه الدراسة على أهمية وجوب التوجّه نحو الازدواجية الرأسية المتعمقة (Vertical Interdisciplinarity) لتحليل

ظواهر السلوك الإنساني المعقدة بطبيعتها وكان المثال العملي المشار

إليه في هذه الدراسة هو تحليل لдинاميكيات «القدرة» في المفاوضات

السياسية الدولية من خلال رؤية مستمدّة من علم اللغويات لطبيعة

البحث الامريقي ومن خلال تحليل أكثر من ٢٠ موقفاً تفاوضياً .

و كذلك قدم الباحث نوعية من البيانات التي يسهل الحصول عليها والتي أطلق عليها تعبير بيانات التراك الثاني .

وأنصح الباحث أيضا طريقة من الطرق التي يمكن بها معالجة البيانات للوصول إلى فهم لاستراتيجيات «القدرة» في الأداء اللغوي وتصنيفها تحليليا لها طبقا للمذود المقترن . ولقد أدى تحليل البيانات إلى إعادة تقييم تصنيفات تحركات المفاوضات (Bargaining moves)

المراجع

- Al- Gabry, Muhammed Abed. Contemporary Arab political Speech : An Analytical and Critical Study (In Arabic). Dar - Al Taliah : Beirut, Lebanon October, 1985.
- Al - Gabry, Muhammed Abed. The Formation of the Arab Mind (part 1& II). Center for the studies of Arab Unity: Beirut, 1984 and 1986.
- Aron, Raymond. peace and War: A theory of International of Relations, Doubleday : Garden city, NY, 1966.
- Azar, Edward. "The Conflic & Peace Data Bank (OPDAB) Project" Journal of Conflict Resolution, Vol. 24, No. 1 March, pp.143-52,1980.
- Bell, David, "International Negotiations and Political Linguistics", Un published paper york University, political Science: ontario, canada, 1988.
- Berelson, B., Content Analysis in communication research, Free press 1952.
- Berelson, B., Bernard & Gary A. Steiner, Human Behaviour : An Inventory of Scientific findings (New york : Harcourt, Brace and World, 1964.
- Bernstein, B. "Language and social class . In Brit . J. Social II, 27 L6. 1960
- Chomsky, Noam, Aspects of a Theory of syntax, MIT press:

- Cambridge, Mass 1965.
- Chomsky, Noam, Language and the Mind, Harcourt, Brace & World, Inc., 1968.
- Dahl, R.A. " The Concept of Power" in Political power : A Reader in Theory and Research (R.Bell, D.V. Edwards & R.H. Wanger, Eds),, The Free Press Orig. New York, 1969.
- Deutsch, Karl W. Nationalism and social communication : An Inquir into Foundations if Natounality , 2nd Ed., MIT : Cambridge MA., 1966 .
- Deutsch, Karl W., Analysis of International Relations, Prentice Hall, Inc : New Jersay, 1978 .
- Fleron, Frederic, Communist studies & the social Sciences, Rand MCN. nally & Company, m Chicago, 1969.
- Sittmar, Norber A Critical Survey of Sociolinguistics Theory and Application Translated from German by Peter, S. and pieter, et al., Norton's Press : New york,1976 .
- Foucault Michael," Politics and the study of Discourse, " Ideology and consciousness, pp.7-26,1978.
- Gumperz, john "Sociocultural Knowledge in Conversational Inference" From Muriel Sacille- Troike, ed., Georgetown University Kound Table on Languages and Linguistics, Georgetown University Press : Washington, D.C, 1977.
- Gumperz, jojn, "Verbal strategies in multilongual communications 1970" (In Alatis 1970: Report of the 20th annual table meeting on Linguistics and Languages studies Monograph series on languages and linguistics 22. Washington, D.C.
- Hassan M. Wageih "A linguistic Analysis of Mechanisms underlying power in international political Negotiations" A Dissertation, Georgetown University Washington, D.C 1989 .
- Holsti, K.J International politica: A Framework for Analysis, (1st Edition, 1966) Prentie Hall : New Jersey, 1988 edition.

- Jesperson, Otto, Language : its Nature, Development and Origin
London: Allen & Unwin, 1922.
- Labov William and Fanshel, David. Therapeutic Discourse, New York: Academic Press. 1977 .
- Lado, Robert. Linguistics Across cultures : Applied linguistics for Language Teachers. Ann Arbor: University of Michigan Press, 1957 .
- Lado, Robert, " How to test cross Cultural Understanding: in Robert Lado, Language Testing, London : Longmans, Green, 1961 New York McGraw-Hill, 1964, pp. 275-89.
- Lakoff, Robin, "persuasive Discourse and ordinary with Examples from Advertising" in, D. Tannen's Analyzing Discourse Text and Talk, Georgetown University Round Table on Languages and Linguistics, Georgetown University Press: Washington, D.C 1981.
- Lyons, John Language & Linguistics , Cambridge University Press, 1981.
- Mehan, Hugh. "Social Constructivism in psychology & Sociology" sociologie et sociétés No. 2,77 - 96 1982.
- Onuf, Nicholas. " after International Relations : The Constitution of Disciplines and their Worlds" a paper presented at American political Science Association, Chicago, Illinois, Sept., 1987.
- Rorty, Richard. The Linguistic Turn : Recent Essays on Philosophical /method, University of Chicago press : Chicago, 1967.
- Shuy Roger W. " W "Conversational power in FBI convert Tape Recordings" in power through discourse, Leah Kedar, ed., 1987.
- Shuy Roger W. Topic as the unit of analysis in a criminal law case, in analyzing Discourse: Text and Talk, ed. D.Tannen Georgetown University Press :Washington, D.C , 1981.

- Tannen, Deborah. "The pragmatics of Cross - Cultural Communication," Applied Linguistics, Vol 5, No. 3, 1984.
- Tannen, Deborah, *Thats Not What I Mean* : William Morrow & Co., Inc: New York, 1986.
- Tomic Olea & Shuy, Roger, *The Relation of Theoretical & applied Linguistics* Plenum press. New York, 1987.
- Walker, Anne G."Linguistic Manipulation, power and the legal setting" jorum, Georgetown Graduate Review, vol 1. No 1, Spring 1984.(also in kedar's ed., 1987).
- Weindtein, Brain. *The Civic Tongue : political Consequences of Language Choices*, Longman : London, 1983.
- Yassin, El Sayed. "In Search of a New Identify of the Social Sciences in the Arab World: Discourse, Paradigm, and strategy" in *The Next Arab Decade: Alternative Futures* ed, by H. Sharabi (English version), Westview press: Colorado, 1988 (Arabie Version issued in 1986) .

ضد المنهج

إطلاعات على أزمة العقلانية الغربية المعاصرة

د. أحمد انور (أبو النور) (*)

(*) مدرس بقسم الفلسفة بآداب المنوفية.

ليس من شك في أن النزعة العلمية Scientism قد سادت الفكر الغربي في القرون الأخيرة على وجه العموم . وكان الخلاف بين المدارس الفلسفية يدور أساساً حول مدى قدرة كل منها على التوافق مع هذا المارد الذي فتن الناس بنتائجها الباهرة ، وتطبيقاته المتعددة، والاتساع المستمر لنفوذ نظرياته المختلفة . وسرعان ما انتقلت عدوى الافتتان بالعلم إلى معظم الاتجاهات الفكرية في دول العالم الثالث ، والتي المخططين والساسة الذين قاتلوا هذه الدول في مراحل التحول وتأسيس السلطة الوطنية في كل منها .

ولست بحاجة إلى رصد تاريخ هذه النزعة منذ بداياتها الأولى حتى وصلت إلى ما وصلت إليه في يومنا هذا ، ويكتفى التوقف بعض الشئ عند عناصر النزعة العلمية المتطرفة كما تجلت في القرن العشرين عند أعلام المدرسة التجريبية العلمية، حيث إن هذا التيار الفكرى يمثل أكثر إشكالها وضوهاً وطموحاً. ويمكن تلخيص هذا الموقف في خمسة عناصر متراقبة [Sorell(1991),p.4]

أولاً : وحدة العلم: العلم الإنساني تنتظم وحدة كاملة تتوارى خلف التنوع الظاهر ، ذلك أن قوانين نظرية معينة يمكن ردها إلى قوانين نظرية أخرى ، وكذلك الحدود الواردة بنظرية معينة

سريعاً ماتجد تعرضاً لها في نظرية أخرى أكثر أولية منها [Ibid, p.5] ويباتى هذا الاتجاه معارضاً لاتجاهات كثيرة تعرف بالاختلاف الجوهرى بين العلوم الاجتماعية والانسانية من جهة والعلوم الطبيعية من جهة أخرى (دلتاى مثلًا) من حيث المنهج ومن ثم في النتائج التي تتوصل إليها كل منها على حدة .

ثانياً : لاحدود للعلم : يعترف التجربيون بدایة أنه ربما تكون هناك أبعاد معينة من التجربة الإنسانية في هذا العالم تقع خارج حدود العلم . أما بالنسبة للبعد الخاص به، أي البعد الذي يهتم بدراسته، فالعلم لاحدود توقف في طريقه . يقرر كارناب في هذا الصدد أنه حين نقول إن العلم لاحدود له فنحن نعني أنه ليس هناك سؤال إلا ويستطيع العلم ، من حيث المبدأ ، يقدم إجابة عنه [Carnap(1967), p.20]

ثالثاً: أثبت العلم تجاهما هائلاً في التنبؤ والتفسير والتحكم ، وتدلنا دراسات كارناب وكارل همبيل على تحقق هذا الأمر في الفيزياء وغيرها من العلوم الطبيعية، بل في حالة العلوم النفسية والاجتماعية أيضاً [Sorell(1991),p.6] ويلاحظ سوريل أن الفلسفة تجد أيضاً مكاناً ذات قيمة في هذا المخطط الذي ترسمه الملامح الثلاثة معاً وهو ما يدعونا إلى البحث عن الأساس الذي يبني عليه نجاح العلم واختراقه للحدود التي تمنع الأنظمة الفكرية المنافسة من الانطلاق ، وكذلك اقترابه من

التوحد النسقى الذى يؤكده أصحاب النزعة التجريبية .

رابعاً : المنهج العلمى يحقق الموضوعية للنتائج التى يتوصل إليها العلماء ، والحقيقة أن المنهج هو السر الذى يراه التجربيون وراء نجاح العلم ، وهو لذلك يكفى لتفسير هذه السمات الجوهرية التى يوصف بها النشاط العلمي ، ويجعل من المقبول الوثيق به إلى حد كبير . والمنهج هنا يضمن للعلم إلا يضل ، وإنما يتمكن العلماء بواسطته من الكشف عن قوانين الواقع .

خامساً : العلم كان دائماً فى صالح الإنسان . وبالرغم من أن هذا الملمع يكاد يكون نتيجة طبيعية للملامح الأربع السابقة، إلا أن سوريل يعتبره أهم الملامح في تعريف النزعة العلمية المتطرفة التي يخصص دراسته الهامة لها . [Ibid, P.7] ونحن لانتفق بالضرورة مع ما يؤكد سوريل ، لأننا في الواقع نعتبر الإيمان بالمنهج العلمي الصارم هو الأساس في كل نزعة علمية سواء كانت متطرفة أو معتدلة . أما قضية كون العلم في صالح الإنسان أم لا فهي مسألة خلافية ، وهو ما سيتضح في نهاية البحث على كل حال أما قضيتنا المحورية التي ستشغلنا في هذه الدراسة فهي المنهج العلمي قبل أي شئ آخر .

والدخل الصحيح لقضيتنا المحورية يرتبط بسؤال يتعدد الأن بقوة في الثقافة الغربية ويتعلق أساساً بالوضع الخاص

اكتسبه العلم في تلك الثقافة ، وانتقل ببساطة إلى ثقافتنا العربية ، بل كاد يصبح ثابتاً أساسياً في الثقافة العالمية ككل . ما هو السبب الذي يكتسب من أجله العلم هذا الوضع الخاص بالقياس إلى أشكال الوعي الإنسانية الأخرى ؟ ولاشك أن أهم من سأله هذا السؤال في النصف الثاني من القرن العشرين هو الفيلسوف النمساوي المعاصر بول فيرابند وإن لم يكن الوحيد الذي شغله هذا الأمر الذي يعكس في تقديري أزمة العقلية الغربية منذ بداية الخمسينيات على الأقل .

في هذا السياق التاريخي المضطرب انتلقت إسهامات بول فيرابند المشيرة للجدل في نقد العلم والنزعة العلمية المتطرفة . هذا المفكر المحير الذي نضجت عبقريته الفكرية وروحه الفنية عشيّة نهاية الحرب العالمية الثانية ، هذا المفكّر أعلن مراجحة أن الصورة التي بذل الفكر الغربي جهوداً جباراً على مدى عقود طويلة في رسمها للعلم لاتتطابق مع الواقع الممارسة العلمية الفعلية من قريب ولا بعيد ، فضلاً عن أنها لا تمثل ما يجب أن يكون عليه العلم على أي حال .

ويأتي كتاب فيرابند الشهير والمثير للجدل " ضد المنهج Against Method " والذي صدر في منتصف السبعينيات ليشكل خلاصة دراساته العميقـة حول تاريخ العلم وقضاياـه الفلسفية المتشابكة . وهو يعلن في مقدمة الكتاب تبنيـه لنظرية

فوضوية في المعرفة على وجه العموم وفي فلسفة العلم على وجه
الخصوص [Feyerabend, p.(1975), p.18] .

إن الفوضوية ليست بالضرورة الفلسفة السياسية المثلثي
الصالحة للمجتمع الإنساني كما يعترف بذلك فيرايند ، ولكن
المنهجية الفوضوية anarchistic Methodology ، وما يتبعها من علم فوضوي anarchisitic science يمثلان
معاً نظرية المعرفة المثلثي من وجهة نظر مفكرينا . ولأنشك لحظة
في أن هذه العبارة هي من أشد صياغات حركة نقد العلم
تطرفاً ، وفيها يظهر مدى معاداة تيار من المفكرين الغربيين
المعاصرين للنزعية العلمية التي سادت الفكر الغربي زمناً طويلاً
على النحو الذي أو ضحناه منذ قليل .

وببدأ هجوم فيرايند الشامل بالتركيز على المنهج العلمي كما
يتبيّن من خلال كتابات فلاسفة العلم سواء كانوا من أجيال
الرواد أم كانوا من الكتاب المعاصرين ، مؤكداً أن بالإمكان بيان
فساد كل القواعد المنهجية المتعارف عليها مما يعني أنه توجد
دائماً ظروف ينصح فيها لا بمجرد تجاهل تطبيق هذه
القواعد ، بل بتطبيق عكسها تماماً [1975, p.23] ، وهذا
معناه أننا لستا أمام مجرد نقد حاد لمنهجية معينة لوجه قصور
معين فيها ، وذلك لصالح منهجية أخرى كما قد يحلو للبعض أن
يستنتجه من بعض العبارات المقطعة من السياق العام لكتاب

إن صاحبنا يصر على أن كل القواعد المنهجية التي يتطرق بها فلاسفة العلم سواء الاستقرائيون أو التكذيبيون تتعارض تماماً مع مصلحة العلم بمعنى أنه يجب اسقاطها وتطبيق قواعد عكسية Counterrules محددة . وعلى سبيل المثال يجب علينا في الممارسة العلمية الفعلية أن تطبق في أحياناً كثيرة فروضاً عينية ad hoc hypothesis إلا إنقاذ نظرية علمية متناقضة ، وعلى العلماء أن يقدموا أحياناً فروضاً تتناقض مع نظريات قائمة بالفعل ، بل وأن يقدموا في أحياناً أخرى فروضاً علمية متناقضة مع النتائج التجريبية المقبولة والمستقرة . [pp.23-24]

كل هذه النصائح المنهجية التي يروح لها فيرابنر تتعارض تماماً مع كل المنهجيات القائمة ، وهو يتحداها لا بتقديم الأدلة "العقلانية" التي تدعم وجهة نظره فقط ، بل بالاحتکام إلى محكمة فلسفة العلم التي لامناص منها ، وهي المتمثلة في تاريخ العلم ، وهو الذي يؤكد كل القواعد العكسية التي يعلنها فيرابنر ومن الواضح أن فكرة وجود منهج محدد أو نظرية محددة العقلانية تقوم على نظرة سازجة للإنسان ومحيطة الإجتماعي ... هناك مبدأ وحيد يمكن الدفاع عنه في جميع الأحوال ، وفي كل مراحل التطور الإنساني إنه مبدأ "anything goes" الذي نترجمه بعبارة «كله ماشي» العامية الدارجة والتي أتصور أنها

تلخص وتكتف فلسفة فيرايند العلمية ولذلك ففضلنا ترجمة المبدأ بهذا التعبير المستعار من اللغة الدارجة وهو ما يتواافق بالقطع مع مزاج صاحبنا على كل حال [pp. 27-28].

* * *

عند هذا الحد يحق لنا أن نسأل فيرايند: ما معنى مبدأ «كـه ماشـى» الذى تروج له بهذا القدر من الحماس؟ وتنقسم إجابة فيرايند إلى شقين: الشق الأول يتمثل فى امتحان كل القواعد المنهجية التى تقدم بها الاستقراريون والتكنولوجيون وغيرهم أمام محكمة تاريخ العلم. هل التزم العلماء فى ممارساتهم العلمية بمثل هذه المنهجيات؟ ونحن نجد فى كتابات فيرايند وغيرها من المفكرين الذى تناولت بالتحليل التفصيلي نماذج كثيرة من تاريخ العلم حالات كثيرة من الخروج على القواعد المنهجية المتعارف عليها فى كتابات الفلاسفة.

أما الشق الثانى: فيتتمثل فى الجانب الإيجابى المعيارى من أطروحة فيرايند الجريئة، وهو أن مبدأه الفوضوى هو ما يجب أن يكون، هو الذى سيكون فى صالح المثل الأعلى الليبرالى الذى ننشده. وواحدية السلطة فى العلم ليست فى صالح العلم نفسه.

خذ القاعدة المنهجية التى تقرر أن علينا أن نقدم ونطور فروضاً علمية غير متسقة مع النظريات المقبولة والمؤيدة بدرجة

عالية (p.29) ويهدف فيرايند من هذه القاعدة إلى إذكاء المنافسة بين نظريات العلم، النظرية القوية مطلوبة ومرغوبة ولكن لا تترك لها الساحة خالية، علينا أن نوجد وندعم البدائل المختلفة لهذه النظرية، فخير اختبار للنظرية العلمية أن تتنافس مع نظريات أخرى قوية، وفي هذا الإطار ينصح فيرايند بالبحث في تأسيس صورة معدلة لنظرية الخلق المستمدة من النصوص الدينية حتى تواجه نظرية التطور، ويكون التنافس العلمي بينهما في صالح التقدم وفي صالح الإنسان صحيح أن الكثيرين من فلاسفة العلم يجزمون بالتفوق الحاسم لنظرية التطور [راجع مثلاً 6 (1992), Ch. Thagard] ولكن هذا يجب أن يؤدى في نظر فيرايند إلى العمل بصورة أفضل في إعادة صياغة نظرية الخلق، وغيرها من النظريات، حتى لا تترك نظرية التطور وحدها على الساحة، ويصبح العلم وفق هذا التصور أبعد ما يكون عن سلسلة النظريات المتسبة التي تتجمع متوجهة نحو المثل الأعلى، ولا الاتجاه التدريجي نحو المصدق النهائي، بل إنه سيكون محاطاً من البدائل النظرية غير المتسبة فيما بينها، وكل نظرية منفردة، كل رواية خيالية، كل أسطورة تشكل جزءاً من هذه المجموعة تجبر الآخريات على مزيد من الدقة والوضوح، وتساهم جميعاً في هذه العملية عن طريق التنافس فيما بينها في تقدم وعيينا (p.30).

إن هذا الحديث يذكرنا بحديث الليبراليين عن أهمية تدعيم التنافس في السوق، ومنع الاحتكار، وكذلك التنافس بين الأحزاب المختلفة والقوية على الوصول للسلطة، بل يذكرنا بحديث النقاد الرياضيين عن أهمية قوة المسابقات الرياضية في ارتفاع مستوى أداء الفرق المختلفة. درس فيرابند يتلخص في أننا في الممارسة العلمية نفعل ذلك تماماً، وهذا ما يجب أن يكون. ويضرب مثالاً من تاريخ نظريات الحرارة لتوضيح أهمية التنافس بين النظريات لكي يحدث تقدم حقيقي. كان سقوط النظرية الفنوميولوجية في الحرارة ولا شك تقدماً كبيراً في الفيزياء في نهاية القرن التاسع عشر. يقرر فيرابند أن سقوط هذه النظرية باكتشاف التناقض بينهما وبين ظارة الحركة البراونية لم يكن ليحدث لو لا تطوير نظرية منافسة وبديلة لها هي الديناميكا الحرارية التي قدمت الأساس النظري للحركة البراونية مما ساهم في رفض النظرية الفنوميولوجية وكان هذا بالقطع في صالح العلم (p.40).

إن ما نستخلصه مع فيرابند هنا هو أن النصيحة المنهجية التي قدمها إسحق نيوتن والتي تدعونا إلى عدم البحث في بدائل النظرية العلمية إلا بعد أن يظهر ما يتعارض معها من ملاحظات وتجارب – هذه النصيحة ليست في صالح التقدم العلمي بأى معنى من المعانى بالرغم من أنها مقبولة على نطاق واسع من

قبل أصحاب المنهج الاستقرائي، بل مقبولة بشكل جزئي من كارل بوير الذي يؤكد على الطابع الثنائي للنقد العلمي، أي وضع النظرية في مقابل الواقع التجريبية التي تتجه في النهاية في اسقاطها. ولكن هذا النجاح يستحيل أن يحدث - كما يوضع في رايدر - دون وجود نظرية أخرى على درجة عالية من التطور بحيث توفر الأساس الذي يخلق منه «الحقائق» التجريبية التي نمتحن بها النظرية المستقرة.

وهذا يعني بالضرورة أن الممارسة العلمية كانت دائماً متعددة الأطراف، يجب أن نسعى لتدعم الأطراف جميعاً مما يخلق المناخ الصحي الملائم لنمو المعرفة ولتصحيح صورتنا عن العلم عن طريق نفي وحدته وتطوره الخطي باعتبارهما هدفين ساذجين وغير واقعيين للنشاط العلمي.

والآن، إذ كان من الجائز أن ندافع عن التحايش «غير السلمي» بين نظريات العلم، بل وأن نسعى إلى إذكائه، فماذا نحن فاعلون إزاء علاقة النظرية بالحقائق الفردية واللاحظات ونتائج التجارب؟ وتاتي أهمية هذا السؤال من زاوية اتفاق معظم فلاسفة العلم على أن نتائج التجارب المشاهدات هي القول الفصل في الحكم بين النظريات العلمية المتنافسة.

ونعلم من كتابات إمرى لاكتوش Lakatos الناقدة لكارل بوير أن كل النظريات العلمية تولد في بحر من التناقضات،

ومعنى ذلك أنه لا توجد نظرية علمية متفقة مع كل «الحقائق». لو استمعنا لبوبير لاقينا هذه النظريات جمِيعاً من النافذة، ولكن فيرايند يعلن ضرورة احتضانها وتدعمها. ويكتفى لبيان ذلك بإعادة التأكيد على ما كان لفيلاسوفنا مع كوكبة من فلاسفة العلم أن كشفوا عنه في الستينيات من علاقة «جدلية» بين الملاحظات والنظريات. الملاحظات تعتمد على النظريات وتساهم في نفس الوقت في تأسيس نظريات جديدة، هذا ما كشف عنه فيرايند، مع هانسون وبستان وغيرهم، ومن هنا فالإصرار على الدفع ببنظريات علمية تتعارض مع نتائج الملاحظات والتجارب يبدو معقولاً، عند فيرايند من زاوية أنه يزكي التناقض بين النظريات، ويؤسس عالم ممكنته مختلفة يمكن من خلالها النظر إلى العالم الأخرى التي ترسمها النظريات المنافسة ونقدُها.

وتاريخ العلم يؤيد هذه الأطروحة، ذلك أننا كثيراً ما نجد أن نظريات علمية كثيرة قد استمرت ونمَّت وساهمت في تقدم البحث العلمي وعاشت قرونًا طويلاً بالرغم من تعارضها الذي لا شك فيه مع بعض «الحقائق» المتاحة وقت ظهورها. يذكر فيرايند (pp. 55 - 56) منها ما يقرره غاليليو من أنه لا حدود لدهشته إزاء تعارض نظرية كوبيرنيكوس (وأسطارخوس) مع حقائق واضحة جداً. كذلك واجهت نظرية الجاذبية النيوتونية صعوبات خطيرة كانت كافية لرفضها منذ البداية. وبالنسبة

لنموذج نيلز بور الذي نجد أنه قدم وطور بالرغم من وجود أدلة عكسية دقيقة ولا سبيل للشك فيها. ترعرعت أيضاً نظرية النسبية الخاصة التي قدم كوفمان نتائج تجريبية دقيقة متعارضة معها.. وهكذا. كل هذه مجرد أمثلة على نظريات علمية ولدت متناقضة داخلياً ومع الملاحظات التجريبية بشكل واضح أمام روادها ونقادها بنفس الدرجة، ومع ذلك لم يتم التخلص منها، بل استمرت وقويت وتدعمت وتتناقضت فيما بينها باشد ما يكون التنافس.

ويمضي فيرايند في تقديم الأمثلة المتعددة على تعارض الممارسات العلمية في أكثر صورها إبهاراً مع كل القواعد المنهجية المتعارف عليها. وي تعرض بالتحديد لتاريخ الثورة العلمية الكبرى التي تأسس بها العلم الحديث كله، وهي النظرية الكوبرنيكية التي تطورت ونمّت وشكلت الأساس المتبين للفكر الإنساني على أيدي كوبيرنيكوس ثم چاليليو ونيوتون وغيرهم. هذه النظرية وصلت إلى هذه المكانة بالرغم من تعارضها مع العديد من «الحقائق» المتعارف عليها - مثال حجة البرج - فضلاً عن النظريات العلمية المستقرة في ذلك الوقت. وقد دفع أنصار هذه النظرية بما يؤمنون به بالرغم من علمهم بتناقضاتها الداخلية فضلاً عن تناقضاتها مع غيرها، وكان حافزاً لهم إلى هذا بعض الاعتقادات الميتافيزيقية التي جعلتهم يغضون الطرف عن

النهايات المذهبية التي تجلت في كتابات فيلسوف مثل بيكون، بل في كتاباتهم المذهبية نفسها، وكان هذا كما أثبت التاريخ في صالح التقدم العلمي ولا شك.

غير أنه عند الحديث عن التقدم في العلم يجب الاحتراز والتحفظ بعض الشيء. فيبول فيرايند وتوماس كون وغيرهما يقدمون معاً الأساس الفلسفى المتن لظاهرة عدم الاتساق الجذرى Incomensurability بين نظريات العلم الكبرى. وبالنسبة لكون Kuhn تحديداً نجد أن مراحل الثورة العلمية تؤسس نسقاً نظرياً منفصلأ تماماً عن النسق الذى ينتمى إلى النماذج القياسية السابق على هذه الثورة (راجع الترجمة العربية لدراساته الهائلة حول بنية الثورات العلمية) وهذه نتيجة من أخطر نتائج البحث الفلسفى التى كان لفيرابند مع كون دور هام فى تقديمها والدفع بها فى حلقات البحث الفلسفى منذ السبعينيات حتى يومنا هذا (راجع مثلاً Ch. 17 من «ضد المنهج»).

وقد أثبتت كتابات توماس كون المتأخرة قدرته على التراجع عن النتائج المتطرفة التي تؤدى إليها نظريته في الثورات العلمية والنماذج القياسية، وتعنى تحديداً تنصله من النسبية المعرفية على وجه الخصوص. أما فيرايند فقد أثر أن يمضى إلى نهاية الشوط وأن ينتقل من نقد فكرة الحقيقة العلمية إلى رفض المذهب

إلى رفض العلم أو على الأقل رفض تمييز العلم بما ي Bai صورة من الصور عن أشكال التعبير الإنساني المختلفة ليقول في النهاية وداعاً للعقل نفسه (1989) وبذلك ينضم إلى قائمة أصحاب ما بعد الحداثة من أمثال ليوتار (1985) وريتشارد روتنى (1980) وغيرهما، وإن كان يتميّز عن هذه الكوكبة بكونه قد اعترى المسرح من سلم فلسفة العلم كمحترف، ولا يذكر أقسى نقاده تمكنه من هذا التخصص الدقيق.

صحيح أن هناك بعض المحاولات الجادة لإعادة تفسير موقف فيرابند، والتخفيف من غلواء المضامين النسبية التي تعبّر عنها كتاباته دون أدنى مواربة، ومن هذه المحاولات الدراسة الجادة التي قدمها هوكر Hooker وذلك بفرض إيجاد حل وسط يقرب بين فيرابند والتيار العام الأكثر تقليدية في الفكر الغربي عموماً وفي فلسفة العلم على وجه الخصوص. [راجع في هذا الصدد (1991) Hooker] لكن فيرابند يسخر من هذه المحاولة ويمضي مستخفا حتى بالمتعاطفين معه بنقاده اللاذعين بنفس القدر من الحرارة.

وعلى مستوى ظاهرة فيرابند الخاصة نجد أنه يمضى دون تردد في نقد أقدس الأقداس في الثقافة الغربية وهو العلم والمنهج العلمي، ويُسخر بمرارة من المفتونين بالعلم والمنهج. إن فيرابند أشبه بالفنان المتمرد على عصره، ولكن الطريف أن هذا

التمرد كما يتجلّى في كتاباته الفلسفية ليس مطروحاً كعمل فني يغفر لصاحبـه أن ما يقدمـه خيالـ في خيالـ، ولكنه مطروح كفلسفة علمـية دقـيقة، بل وكرؤـية اجتماعية وحضارـية مرتبـطة بفلسفة سياسـية ونظـرة شاملـة للكونـ ومـكانـ الإنسانـ فيهـ، ولعلـنا لا نفـاجأـ أنـ فيـرـابـندـ فيـ بداـيةـ حـيـاتـهـ العـمـلـيـةـ كـادـ أنـ يـعـملـ فيـ مـسـرـحـ بـرـيـختـ مـسـاعـداـ لـالـمـخـرـجـ. صـحـيـحـ أـنـ تـرـكـ المـسـرـحـ ولكـنهـ نـقـلـ رـوـحـ الـفـنـانـ معـهـ إـلـىـ حـرـمـ الـعـلـمـ المـقـدـسـ، وـهـذـاـ مـاـ يـجـلـبـ عـلـيـهـ الـانتـقـادـاتـ التـىـ لاـ تـتـنـتـهـىـ.

وـالـآنـ نـتـسـاعـلـ: مـاـذاـ عنـ النـتـائـجـ التـىـ يـمـكـنـ اـسـتـخـالـصـهاـ منـ أـطـرـوـحـاتـ فـيـرـابـندـ؟ لـشـكـ أـنـ صـاحـبـنـاـ يـهـاجـمـ الـعـلـمـ وـالـعـقـلـ الـإـنـسـانـيـ بـصـورـتـهـ التـىـ حـاـولـ الـفـكـرـ الـفـرـيـسيـ تـروـيجـهـاـ لـسـنـوـاتـ طـوـيـلةـ بدـعـاـ منـ الـقـرـنـ السـابـعـ عـشـرـ عـلـىـ وـجـهـ التـقـرـيبـ. الـعـلـمـ طـبـقاـ لـتـحلـيلـاتـ التـفـصـيلـيـةـ التـىـ تـنـاـولـنـاـهاـ أـقـرـبـ فـيـ بـنـيـتـهـ إـلـىـ الـأـسـطـوـرـةـ مـاـ تـسـمـعـ بـهـ أـىـ فـلـسـفـةـ عـلـمـيـةـ ظـهـرـتـ قـبـلـ فـيـرـابـندـ (p. 295)

ولـعلـناـ نـذـكـرـ هـنـاـ أـنـ وـاحـدـاـ مـنـ عـنـاصـرـ النـزـعـةـ الـعـلـمـيـةـ الـمـتـنـطـرـةـ التـىـ رـصـدـنـاـهاـ فـيـ السـطـوـرـ الـأـوـلـىـ لـهـذـاـ الـبـحـثـ يـتـمـثـلـ فـيـ تمـيـزـ الـعـلـمـ بـصـورـةـ حـاسـمةـ عـنـ كـافـةـ أـشـكـالـ الـوعـيـ الـإـنـسـانـيـ.

وـلـاـ كـانـ تمـيـزـ الـعـلـمـ يـتـحـقـقـ بـوـجـودـ منـهـجـ صـارـمـ دقـيقـ فـيـانـ ماـ حـاـولـ فـيـرـابـندـ البرـهـنـةـ عـلـيـهـ مـنـ عـدـمـ وـجـودـ منـهـجـ عـلـمـيـ عـلـىـ الإـطـلـاقـ كـماـ أـكـدـ تـارـيخـ الـعـلـمـ، بلـ إـنـ مـحاـولةـ فـرـضـ منـهـجـ عـلـىـ

الممارسة العلمية يعوق التقدم ويهدر إمكانات البشر المعرفية كما يقول. وهنا تؤدي هذه المقدمات إلى سقوط كل دعوى لتميز العلم عن الأسطورة ومن البناءات الميتافيزيقية الكبرى. ويستند فيرايند إلى بعض نتائج الدراسات الانثربولوجية التي قدمها إيشانز بريتشارد وهاملتون وجرمياس ونوبين هورتون وغيرهم . ساهمت هذه الكتابات في رصد تشابهات كثيرة بين العقل العلمي والعقل الأسطوري.

ومع ذلك فقد كان من الممكن استيعاب نتائج الدراسات الانثربولوجية على اعتبار أن العلم والأسطورة غير متسقين جذريا Incommensurable ، وهو ما قد يفتح باباً ضيقاً لإعادة تأسيس التميز الذي تلحقه بالعلم. يتمثل هذا في صلة العلم بالواقع وأن طابع العلم تمثيلي representational ، أي أنه شبيه بمراة تعكس الواقع الفيزيائي بدرجة معقولة من الدقة. ولكن الدراسات المعاصرة في الاستمولوجيا الاجتماعية تقدم أدلة كثيرة وهامة ضد هذا الطابع التمثيلي باعتبار أن العلم تركيب اجتماعي على درجة عالية من التعقيد [راجع في هذا (1988) Woolgar]، أو أن مجاز المرأة لا ينطبق على البناءات العلمية بآى صورة من الصور [Rorty (1980)] .

ومن ناحية أخرى ساهمت أطروحة عدم الاتساق الجذري Incommensurability بين العديد من نظريات العلم

الكبيرى كما كشف عنها فيرابند [1975], Ch. 17]] وتوMas كون فى تقويض أساس مبدأ تمييز العلم بالصورة التقليدية، وبذلك فالعلم والاسطورة يقنان على قدم المساواة ويتنافسان كروى مختلف للعالم من حق الفرد أن يقبل واحدة منها دون الأخرى. لا تميز للعلم من زاوية معرفية على الإطلاق حين نقارنه بأساطير البدائين أو بالانساق الميتافيزيقية التى قدمها فلاسفة ومفكرون فى عصور سابقة، أو يرى للعالم مستقاة من النصوص الدينية السماوية.

نتيجة «منطقية» متربعة على هذه الرؤية تتتمثل فى أن من الضرورى الفصل بين العلم والدولة. يؤكّد فيرابند أن الحضارة الغربية قد أنجزت قدرًا كبيراً من الفصل بين الدين والدولة، ولذلك فهو في حاجة إلى الفصل بين العلم والدولة. ذلك أن الواقع التاريخي للحضارة الغربية يؤكّد أن العلم أوشك في أكثر من مرحلة أن يحل محل الدين ويلعب دوره في تبرير السلطة والمحافظة على واحديتها كما فعل الدين في العصور الوسطى (pp. 299-300).

إن دور العلماء والخبراء يشبه إلى حد كبير دور رجال الدين في العهود الماضية من تاريخ أوروبا، الخبراء والعلماء المتخصصون في فرع من فروع المعرفة له سلطة مرتبطة بسلطة الدولة، ولا رقابة اجتماعية على المتخصصين. أما الروح الليبرالية المتطرفة

[راجع (Newton Smith 1981) التي يعبر عنها فيرابند فتؤكد على ضرورة السماح لكل التقاليد المعرفية المختلفة بأن تعبّر عن نفسها داخل المجتمع دون هيمنة لطرف على بقية الأطراف، وهذه هي دعوى فيرابند التي طورها في دراسته التالية ، وهي بعنوان: «العلم في مجتمع حر».

ويطالب فيرابند بأن تطبق فلسنته الليبرالية في التعليم الذي يجب أن يعكس أيضاً ايمان المجتمع بقيمة الليبرالية المطلقة حتى على حساب العلم. لماذا نعطي أصحاب نظرية التطور الحق في الانفراد بالكلمة في نظامنا التعليمي؟ ولا نعطي نظرية الخلق نفس الحق؟ لماذا يستأثر الطب الغربي بكل الاهتمام والتمويل البحثي ولا نسمع لممارسي الطب الشعبي بنفس الفرصة؟ إن فيرابند يطالب بالمساواة الكاملة لكل هذه التقاليд حتى تتصارع ويعبر المجتمع الإنساني عن تعدديته بكل قوّة مما يشكل الأساس لتفتح طاقاته وانطلاق الجميع.

* * *

وبعد هذه الرحلة القصيرة والشائقة مع ممثل لتيار رفض الحداثة في الفكر الغربي، ونأخذ قاس للعلم الغربي أكثر جوانب الحضارة الغربية سطوعاً وموضع الفخر للجميع تقريراً حتى عصر قريب، ماموقفنا نحن في هذا الجزء من العالم؟ إن هذه الدعاوى تتلاقي جزئياً على الأقل مع بعض الدعاوى التي يطالب

بالانفلات عن العالم الخارجي والنكوص الى الماضي السحيق
بحثاً عن مستقبل شأنه غير واضح المعالم.

إن مهمتنا تبدأ بالفهم ثم البحث عن الدروس المستفادة. أما
عن موقف فيرابند وريتشارد رورتي Rorty ولويتار Lyotard
وغيرهم من المفكرين من دعاة النسبية واللامعقلانية فهم يمثلون
تياراً يحاول تجاوز المشروع الحداثي وليس النكوص عنه، ومن
ثم فقد يجوز أن نقبل هذه الأطروحات ليس بحثاً عن بديل جاهز
محدد، بل، تأسيساً على مكتسبات القرون الأربع الأخيرة
ورفضاً بالقطع لنتائجها الكثيرة والخطيرة.

يقول فيرابند أن ما يطرحه من رفض للمنهج ورفض لهيمنة
العلم ورفض للعقلانية الغريبة لن يؤدي الى الفوضى الشاملة
Anarchy ، وهي تختلف عن الفوضى المنظمة Chaos إلى
حد كبير. هو أولاً يثق أن دعوته لن تكون مقبولة من الجميع(١)
وهذا ضمان لعدم الانزلاق الى الفوضى الشاملة. ولكنه يعبر في
موقعه العام عن مفارقة طريفة: فمن ناحية يؤكد فيرابند على
أهمية وجود من يرفض أطروحاته المتطرفة، وهو هنا كمن يتأنى
على آرائه، ومن ناحية أخرى يبدو طبيعياً أن توجد روئي فلسفية
معارضة له، وهو ما تقضى به فلسنته التعددية على كل حال.
ويسعدنا بالتأكيد أن تكون ضمن خصوم فيرابند.

غير أن مهمة الفهم عسيرة ونحن إزاء هذه الشخصية

الفكرية المعاصرة، كيف لا وهو يمثل ظاهرة تستعرض على التحليل والاستيعاب حتى بالنسبة للتيار العام في الفكر الغربي؟ ومع ذلك نستطيع أن نقترب قدر الإمكان من بعض الملامح العامة التي تجعل من كثير من أطروحات فيرابن드 مفهومة، بل وربما مقبولة جزئياً إذا نظر إليها فرادى على الأقل.

إن نقد المنهج الذي يمثل جوهر فلسفة فيرابن드 يرتبط إلى حد كبير بأزمة المنهج في الثقافة الغربية المعاصرة بدءاً من نقد الاستقرار عند هيوم ثم بوير في القرن العشرين. وكذلك نقد الكثيرين من أصحاب العلوم الإنسانية والاجتماعية للمنهج الاستقرائي والمنهج البويري لصالح أطروحات منهجمية متباينة. ولعل هذا ما دفع الكثيرين إلى تبني أطروحة تعدد المنهج عموماً، وفي العلوم الاجتماعية على وجه الخصوص [Roth (1987)]. صحيح أن فيرابن드 يتجاوز هذا الطرح ليدعم المناهج المتناقضة والرؤى المتعارضة، ومن ثم لضرب فكرة المنهج الواحد الوحيد ذاتها، ولكن الخلاف بالنسبة لبعض الدارسين خلاف في الدرجة فقط، وإن كان كبيراً.

يعكس الطرح الفكري الذي يقدمه فيرابن드 اهتماماً متنامياً في الفكر الغربي بداية من ديوي Dewey وانطلاقاً من أطروحات فتجلنشتين Wittgenstein المتأخرة بدراسة الممارسة الإنسانية Human Practice ، يجعلها محور

البحث الفلسفى سواء كان الأمر بالنسبة للسلوك الإنسانى العادى أو السلوك الاستدللوجى، والدافع وراء هذا عند الكثيرين، ومنهم كواين Quine وجير Giere هو أن الفلسفة عموماً ونظرية المعرفة خصوصاً عليها أن تتوقف عن أداء دور الناصل الأمين للنشاط العلمي الإنسانى، وتقنع بدور الوصف بدلاً من التحديد القبلى للمنهج العلمي ولمعايير العقلانية دون أن تكون هذه الفلسفات متجاذبة بوضوح مع الممارسة العلمية الحقيقية.

والعلاقة بين تاريخ العلم وفلسفة العلم أصبحت فى هذا السياق على درجة كبيرة من الأهمية، فلم يعد النظر إلى تاريخ العلم مجرد التقاط لنماذج جزئية منتزعه من سياقها الاجتماعى والتاريخى والثقافى، وتجريدها من هذا كله بحثاً عن مضمون منطقى أو منهجى لا أكثر، ويحدث فى معظم الأحيان أن يفرض هذا المضمون المنطقى على النموذج العلمى المعين، إن السياق العام الذى تولد فيه النظريات العلمية وتعيش زمناً ما طال أم قصر أصبح اليوم على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لفلسفة العلم، وخير شاهد على ذلك كتابات توماس كون التى تؤسس فلسفة العلم بناء على تفسير معين لتاريخ العلم، ولا تفرض فلسفة قبلية *a priori* على هذا التاريخ، وكذلك أيضاً دراسات فيرابند نفسه، بما فيها دراسته التى نهتم بها هنا والتي

يخصص أكثر من نصفها لتحليل نموذج تاريخي واحد هو الثورة الكوبرنيكية في الفلك.

وتعكس أطروحة فيرابند أيضاً، كما نوهنا سابقاً، الروح الليبرالية التي يبالغ صاحبنا في الالتزام بها. ولكن التأكيد على التعددية حتى في مجال المعرفة ونفي السلطة المعرفية للنموذج العلمي والمنهجي الغربي والإصرار على إتاحة الفرصة لكل الأيديولوجيات المعرفية الأخرى، والفصل بين الدولة وكل أيديولوجيا معرفية يؤكد التقاليد الليبرالية التي يستند إليها فيرابند ولذلك يعتبر أن السيطرة التي نجح العلم في تحقيقها على مقدسات الدولة خلال عقود طويلة بدماء من القرن السابع عشر لم تكن في صالح الإنسان. ولعل جهود فيرابند تبرز هنا تناقضاً طرياً بين إنجازات الفكر السياسي وتراثه من ناحية وتراث الاحترام العميق الذي تكتبه الثقافة الغربية للعلم. نزعتان متناقضتان تكشفان عن توقيع عميق في قلب المشروع الحضاري الغربي الذي نكتفي هنا برصد他的 فقط.

إن فلسفة فيرابند دروسى وأطروحات ما بعد الحداثة تعبر حاد عن أزمة الفكر الغربي، ونحن بالقطع لستا ببعدين عنها، ولكن موقفنا الصحيح منها تملية أزمتنا الحضارية نحن، والتي تشكل أزمة الحضارة الغربية جزءاً منها وإن كانت لا تستفرقها. يقول فيرابند إنه لا مانع لديه أن يأتي زمن يحسن أن يتمسك الناس فيه بأهداب المنهج والعقلانية، وربما يكون هذا في صالح التقدم بأى معنى من المعانى، ولكننا نقول إنه قد يأتي وقت يتمرد الناس فيه على العقل والمنهج والعلم، ولكن ليس الآن بالنسبة لنا لأنه لن يكون في صالح التقدم.

المراجع :

- (1) Carnap, R. (1967). The Logical Structure of the World, trans. by R. George, University of California Press.
- (2) Feyerabend, P. (1975) Against Method, Verso Books.
- (3) (1978): Science in a Free Society, Thetford, Norfolk.
- (4) (1989): Farewell to Reason, Verso, London.
- (5) Hooker, C. A. (1991): Between Formalism and Anarchism: A Reasonable Middle Way, in Beyond Reason, edited by G. Munavar, Boston Studies in the Philosophy of Science, Vol. 132, pp. 41 - 107.
- (6) Horwich, p. (ed.) (1993). World Changes, Thomas Kuhn and the nature of Science, A Bradford Book.
- (7) كون، توماس: بنية الثورات العلمية، ترجمة شوقي جلايل، سلسلة مالك المعرفة، الكويت.
- (8) Lyotard, J. F (1985): The Postmodern Condition, English Translation, Manchester University Press.
- (9) Newton-Smith, W. (1981) : The Rationality of Science, Routledge.
- (10) Rorty, R. (1980): Philosophy and the Mirror of Nature, Princeton University Press.
- Sorell, T. (1991): Scientism, Routledge, London.
- (11) Roth, P. (1987): Meaning and Method in the Social Sciences, Cornell University Press.
- (12) Thagard, P. (1992): Conceptual Revolutions, Princeton University Press.
- (13) Woolgar, S. (1988): Science: The Very Idea, Ellis Horwood Limited.

رقم الإيداع : ٩٧/١٥٤

هذه السلسلة :

سلسلة جديدة أشرف بتوسيع مسؤوليتها، يتسع موضوعها ليشمل محوريين أساسيين لا غنى عنهما لحياةنا المعاصرة: الفلسفة - العلم.. من الفلسفة إلى العلم، ومن العلم إلى الفلسفة، تنتقل يوماً هذه السلسلة في محاولة لصياغة روبي جديدة تتهم في صناعة العالم الفكري الذي يتجدد كل يوم.

هذا الكتاب :

المشكلة هي المنهج.. ذلك ما اعتقده وأقول به، ليس فقط فيما يتعلق بالعلوم (الإنسانية) وإنما في العلوم كلها؛ بل المنهج هو المشكلة المهمة في شتى ضروب واقعنا المعاصر: فكرياً واقتصادياً وسياسياً واجتماعياً.. وعلميأً أيضاً .

لذا كان هذا الكتاب.

د. يوسف زيدان

To: www.al-mostafa.com